المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

إستراتيجية تطوير التربية العربية

سلسلة الكتاب التربوي

« رؤى وأفكار »

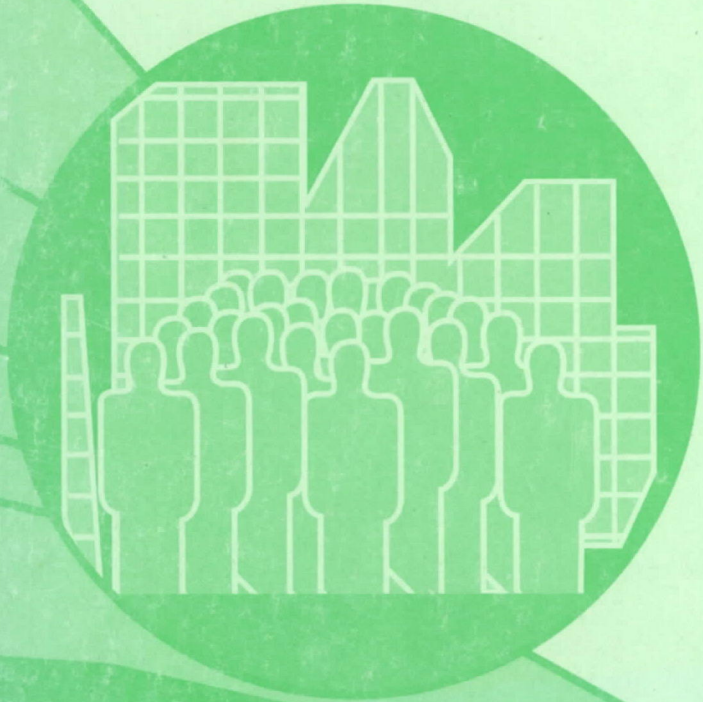

الكتاب الثاني :

الماضي الحي

تونس 2008

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

استراتيجية تطوير التربية العربية
سلسلة الكتاب التربوي
« رؤى وأفكار »

الكتاب الثاني : الماضي الحي

الإشراف العام ·

الأستاذ الدكتور المنجي بوسنينة
مدير عام
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

الدكتور / محمد أحمد التريف
أمين
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

المحررون

الدكتور / ميلود عبد السلام حبيبي
الدكتور/ علي الهـــادي الحـــوات
الأستاذة / حياة الرزقي وادي

الدكتور /عبدالله محمد الزروق
الاستاذ / أسعد أحمد المسعودي
الأستاذ / محمد عمران الحكيمي

إستراتيجية تطوير التربية العربية : سلسلة الكتاب التربوي «رؤى وأفكار» / المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ؛ جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ـ تونس : المنظمة... ؛ جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، 2008 ـ ص 80.

ت / 2008 / 11 / 24

I.S.B.N. : 978 - 9973 - 15 - 267 - 1

جميع حقوق النشر والطبع محفوظة للمنظمة

مطبعة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

الفهرست

المحتويـــات	الصفحة
مقدمة عامة	6
مقدمة الكتاب	9
أولا : الوطن العربي مهد الحضارات الإنسانية	12
1 – الأجناس التي سكنت الوطن العربي	12
2 – الكتابة كمقوم من مقومات الحضارة العربية	15
3 – اللغة العربية	16
ثانيا : الوطن العربي مهبط الديانات السماوية	17
ثالثا: أسس المجتمع الاسلامي	20
1 – التوحيد	21
2 – النظرة الشاملة للإنسان	22
3 – تنظيم المجتمع	24
4 – شمول النظرة إلى الإنسانية	28
رابعا : مجتمع المدينة المنورة كنموذج تطبيقي	29
خامسا : الجوانب الثقافية والعلمية للحضارة العربية	33
1 – العلوم الإنسانية	33
أ – حركة العلوم الدينية	33

ب – الحركة الأدبية 36
ج – الحركة التاريخية 38
د– حركة النقل والترجمة 39
هـ – الفلسفة 40
2 – العلوم الطبيعية 42
أ – الرياضيات والفلك والجغرافيا 43
ب – الكيمياء والفيزياء 45
ج – المخترعات والصناعات 46
د – الطب والصيدلية 47
سادسا : خصائص الحضارة العربية 50
1 – الشمول والغنى 50
2 – الاتصال بالحضارات الأخرى 51
3 – الأصالة والنقل 51
4 – النزعة العقلانية 52
5 – النزعة الأخلاقية 53
6 – مجتمع متفاعل 53
7 – الحرية الفكرية 54
8 – التأثير في الحضارة الأوروبية 55
سابعا : التربية العربية: مبادئها ومؤسساتها 56
1 – المبادئ 57

أ – مكانة العلم والعلماء 57
ب – الشمول والتكامل 57
ج – العقلانية والأخلاقية والعملية 58
د – مجتمع التعلم والمعرفة 58
هـ – اعتبار التعليم حقا وواجبا على كل إنسان 59
و – العناية بالطفولة 60
ز – الوظيفة الاجتماعية للتربية 61
ح – التعليم مفتاح التغيير وأداته 62
ط – التعليم المستمر 62
2 – المؤسسات : 63
أ – الكُتَاب 64
ب – المسجد 65
ج – المدرسة 66
د – دور الحكمة والمكتبات 67
هـ – الخوانق والزوايا والربط 68
ثامنا : الفكر التربوي العربي 70
تاسعا : ضعف الحضارة العربية 75
خاتـمة 78
المراجع 80

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عامة لسلسلة الكتاب التربوي

إن سلسلة الكتاب التربوي التى نقدمها للقارئ العربي الكريم و المكونة من ستة كتب تحمل عناوين تربوية مختارة إنطلاقاً من الوثيقة الأصل لإستراتيجية تطوير التربية العربية التى تم اقرارها من قبل مؤتمر وزراء التربية العرب الذي عقد في الخرطوم من عام 1978.

ولعل الدافع إلى إصدار هذه السلسلة يرجع إلى عدة أسباب منها ما يلي:

1 – لقد مضى على إصدار الوثيقة الأصلية لإستراتيجية التربية العربية ما يزيد على ثلاثة عقود ، وهي مدة ظهرت فيها كثير من التغيرات والمستجدات في الوطن العربي بأكمله تناولت الوضع التعليمي وتطوره، وبالتالي اقتضى الأمر أن تتناول هذه السلسلة تلك المستجدات والتطورات التربوية بشيء من التحديث والتقييم على أرض الواقع.

2 – إن التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في العالم المحيط بنا له انعكاسات على العالم العربي أثر فيه وتأثر به، ومن ثم كان لابد من أخذ ذلك في الاعتبار عند إصدار سلسلة الكتاب التربوي هذه.

3 – مر العالم العربي خلال العقود الثلاثة الماضية بتطورات مختلفة تناولت الكم والكيف في المنظومة التعليمية ، ومن ثم كان أحد أهداف هذه السلسلة التربوية قد تناول ذلك التطور بشيء من الفحص والتدقيق والتحليل لمعرفة التطور الذي حصل ، وما هي الدروس المستفادة منه.

4 – لكي يواكب القارئ العربي التطورات التربوية بشكل واقعي ،لابد من تحديث المعلومات الصادرة منذ ثلاثة عقود ، وإعطائها الأهمية اللازمة وفقا لمفهوم ومعايير العصر.

هـذه جملـة من الأسباب التى كانـت وراء إصـدارهـذه السلسلـة التربويـة، مع مراعـاة أن هـذه السلسلـة التربويـة لم تستهـدف تغييـراً جذرياً في المفاهيـم التربويـة الصـادرة في ذلك الوقـت، بل أبقـت على الجوهـر حسـب معطياتـه ومفاهيمـه ، و تناولـت ما اكتنـف ذلك من تغيـرات ومستجـدات وفقاً للتطـور الزمنـي بحيث تصبح مقبولة في ظل مفاهيم ومعطيات العصر الحاضر.

إن هذه السلسلة التربوية تهدف فيما تهدف إليه من رؤى وأفكار لمواكبة العصر من حيث نوعيـة المعلومات والمفاهيم والمصطلحات وتؤكد على هوية الأمة العربية وحفاظها على تراثها وآصالتـها ومبادئهـا مستلهمـة ذلك من تاريخهـا وماضيهـا الحـي وآصالتهـا وتطلعاتهـا لحيـاة أفضـل لأجيالهـا الصاعـدة وتسعى هذه السلسلة بشكل خاص إلى :

أولا· التعريف بأصالة العقل العربى التربوى الذي ينطلق من ماضي حضاري وعلمي حي وعريق ويتفاعل مع الحاضر وله رؤية لبناء مجتمع المستقبل.

ثانياً : توفير مادة علمية تربوية للقراء والباحثين والمخططين واصحاب القرار ، وكل المهتمين بالتعليم والتربية في مختلف مستويات البحث العلمي والإدارة والسياسة والتخطيط بحيث يسهل الرجوع إليها كقاعدة معلومات تربوية ويمكن أن تكون هذه المادة منطلقاً لمنتديات فكرية تربوية في جميع أنحاء الوطن العربي.

ثالثاً: تقدم هذه السلسلة تلخيصاً موضوعياً ودقيقاً لتطور الفكر التربوي العربي منذ السبعينيات من القرن الماضي. وفي هذا السياق تظهر بجلاء المعطيات والمتغيرات العربية والاقليمية والدولية والحضارية التى أثرت في هذا الفكر التربوي العربي ، وبدوره أثر فيها. فهي تاريخ مسيرة حضارية وعربية ضمن المسيرة العالمية والانسانية للفكر التربوي العالمي.

رابعاً: تشكل هذه السلسلة إطاراً نظرياً ومنهجياً ومعلومات وبيانات واقعية يمكن أن تسهم وتؤسس لبناء نظرية تربوية عربية حديثة تستمد أصولها من الماضي الحي للأمة العربية ، وتتطلع وتتفاعل مع كل جديد ومتطور في عالم المعرفة والتقنية الذي يسود حضارة القرن الحادي والعشرين ويسعى إلى بناء مجتمع المعرفة.

إن هـذا العمـل المشـترك الذي تبنتـه المنظمـة العربيـة للتربيـة والثقافـة والعلـوم

وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية يمثل إنطلاقة علمية وتربوية للباحثين والمخططين التربويين ، وللقارئ بوجه عام حيث أنه يرسى رؤية ونظرية تربوية يعتبر المجتمع العربي في أمسّ الحاجة إليها، إضافة إلى أن هذا العمل التربوي يستحث شباب الأمة العربية ومتتبعي تطور الفكر التربوي العربى إلى العمل بكل حماس وجدية للرفع من مستوى المؤسسات التربوية في العالم العربي والنهوض بها لكي تواكب التطور العلمي والتربوي والتقني المعاصر.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا العمل التربوي المشترك ، ما كان له أن يصدر ويرى النور لولا تكاثف جهود عدد من المفكرين والتربويين الذين ساهموا بشكل إيجابي في إصدار هذه السلسلة ويأتي في مقدمة هؤلاء الأستاذ الدكتور محمد أحمد الشريف أمين جمعية الدعوة الإسلامية العالمية الذي أعطى دعماً فكرياً ومعنوياً ومادياً ، وشجع على إظهار هذا العمل إلى حيز الوجود.

والشكر والتقدير موصول إلى أعضاء اللجنة الفنية في كل من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية الذين دأبوا على متابعة هذا العمل وتحريره ومراجعته بشكل يدعو للفخر والاعتزاز.

ونتوجه بخالص الشكر والتقدير للأستاذين الكريمين : الدكتور إبراهيم عبد الرافع السمدوني (ج .م.ع) والدكتور إيهاب السيد أحمد (ج.م.ع) لعملهم في الإعداد لهذه السلسلة وتهيئتها العلمية والفنية للنشر.

إلى هؤلاء جميعا تقدم المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالغ الشكر والتقدير والعرفان لما قاموا به من جهد ودعم وعمل والله الموفق.

الأستاذ الدكتور المنجى بوسنينة

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

مقدمـــة

ينبغي لأي أمة تريد أن تبقى بين الأمم وتسعى إلى التقدم في مصاف الدول المتقدمة ألا تقطع صلتها بماضيها، خاصة إذا كان هذا الماضي مليئاً بالكثير من الإنجازات والصفحات المشرقة، ويحتوي على نواحي التقدم والازدهار في مختلف المجالات العلمية، الإنسانية منها والطبيعية.

ولقد حملت الأمة العربية رسالة الإسلام في حركة التاريخ الكبرى، فكانت قوة غالبة دفعت شعوبها إلى بناء حضارة إنسانية تفاعلت مع الحضارات الأخرى، فنقلت وحفظت وأبدعت وابتكرت، بل وأوصلت ما استوعبته إلى غيرها من الأمم ، فكان إسهامها في مسيرة الحضارة الإنسانية غنياً وعظيماً. وكانت التربية العربية هي الوسيلة الأساسية في ذلك التطور الحضاري، والتي انطلقت من تقدير العلم والعلماء، والتعويل على العقل والأخلاق ودعوة الإنسان إلى مواصلة تربية نفسه بصورة متكاملة متوازنة متواصلة من المهد إلى اللحد .

والدارس لهذا التراث الحضاري العربي يجد أنه تراث غني ومليء بالإنجازات في شتى مجالات الحياة، بل يصح أن يطلق عليه ماض حي يقاوم الفناء، فهو تراث حي لأنه إنساني في قيمه وفضائله، وفي مناهجه ومواقفه، استمد مصادره من أصول

العقيدة، وأسهمت فيه حضارات وعبقريات من سائر الأمم والشعوب وهو موجه إلى الإنسانية جمعاء .

وهو تراث حي لأنه ظل ساريا بين الجماعات، موصولا من جيل إلى جيل ، متعمقا بين النفوس لم تخمد روحه بين الأفراد عامة، وقد يقوم بتجديده بعض الأعلام هنا وهناك على فترات، وقد أعان الأمة بقيمه ومثله العليا على الصمود مهما داهمت أقطارها الغزوات والنكبات .

وهو كذلك تراث حي لأنه قابل للتطور وصالح للبقاء في كل مكان وزمان ، لأنه يعول على أشرف ما يتميز به الإنسان، عقله وضميره، ويدعو إلى الإخاء والعدل والمساواة بين الإنسانية، وهي معايير – بلا شك – صالحة في هذا العصر وفي سائر العصور.

وتهدف دراسة ماضي الأمة العربية للاستفادة به في فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل ، ومن هنا تبرز أهمية دراسة التاريخ للكشف عن السنن الكونية التي تحكم هذا الكون، كما تحكم قيام الحضارات واندثارها، والعمل على تحليل هذا التاريخ ودراسته دراسة نقدية واعية للاستفادة به في الوقت الحاضر.

وفي حضارتنا العربية الإسلامية تبرز أهمية دراسة هذا التاريخ العظيم وهذا التراث من القيم والفضائل الخلقية، ولإزالة هذا اللبس والغموض الذي اعترض هذا التاريخ حقبة من الوقت على

أيدي بعض القوى الخارجية التي أرادت أن تطمس هوية هذه الأمة . ومن هنا يجب إزالة الخلط بين الدولة والأمة فالدولة يمكن أن تنحل أو تتبدل ، أما الأمة فتظل وتبقى ، وهذه الأمة يمكن أن تخبو ولكنها لا تغيب ، ويمكن أن تمرض ولكنها لا تموت .

وقد جاءت الدعوة في كتاب الله – عز وجل – في أكثر من موضع إلى دراسة التاريخ والاعتبار وأخذ العظة والعبرة من الأمم السابقة ، « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» آية (176) الأعراف «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون» آية (111) يوسف ، وفي الحديث «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» ، ولعلها إشارة إلى ضرورة أن يعتبر الإنسان بما يمر عليه من أحداث .

ومن ثمَّ كان هذا الكتاب – أخي القارئ العربي – لتقديم بعض الإشارات والملامح الرئيسة للحضارة العربية ، وإلا فلا يمكن عرض الحضارة العربية في بضعة أوراق ، فهذا أمر تعجز عنه المجلدات.

أولاً : الوطن العربي مهد الحضارات الإنسانية

1 – الأجناس التي سكنت الوطن العربي :

شهد العالم العربي منذ فجر التاريخ ثورة التمدن الأولى من إعمار المدن وتنظيم نشاطها وممارسة الحرف والصناعات، والاعتماد على الكتابة والمهارات الفكرية، وذلك لما يتمتع به الوطن العربي من وديان أنهاره الكبيرة وسواحل بحاره الممتدة، والظروف الطبيعية الملائمة. وصاحب ثورة التمدن تلك تطور ملحوظ في حياة الإنسان من تنظيم اجتماع، وإتقان للعمارة والفنون الجميلة والتطبيقية، والعلوم والآداب.

ولقد كان لاستقرار الحياة في معظم مناطق الوطن العربي الأثر الأكبر في المشاركة الرائدة في سائر مجالات الحياة، وما تزال الشواهد عليها ظاهرة للعيان في المتاحف الدولية والمحلية، ومواقع الآثار، والدراسات التاريخية المعتمدة.

وعلى الرغم من موجات الهجرة السامية التي كان لها النصيب الأكبر في تكوين الشعوب العربية، والتي أدت إلى تعدد الأصول السكانية، إلا أنها اندمجت وانصهرت وساعدت على قيام تلك الحضارات، حيث اندمجت في سومر وسادت في آشور وبابل في وادي الرافدين، كما تغلغلت في مصر تارة من الشمال وتارة من الجنوب وسادت في فلسطين وسوريا ولبنان، وتفاعلت تلك

الشعوب بعضها مع بعض باستمرار، وكشفت الدراسات التي تمت في علوم اللغة عن أوجه شبه متعددة بين اللغات البابلية والآشورية والكنعانية، والعبرية واللغة العربية.

وترجح الدراسات أن شبه الجزيرة العربية المهد الأصلي للساميين، إلا أنهم هجروا الصحراء التي تعرضت للجفاف على فترات متوالية ، فضاقت فيها موارد الغذاء مما دفع أهلها إلى الهجرة إلى البلاد المحيطة ووديان الأنهار الكبيرة، فاستقروا في الهلال الخصيب ومصر .

وتتبع المؤرخون النصوص الأولى التي وردت فيها كلمة «عرب» واختلاف دلالاتها بين التخصيص على مواقع في الأرض أو على قبائل بعينها أو على خصائص البداوة فيها، وبين التعميم على شبه الجزيرة وما يتجاوزها وعلى قوم بجميع قبائلهم، وقد استعملها هيرودتس كبير مؤرخي اليونان في القرن السادس قبل الميلاد لتشمل شبه الجزيرة العربية كلها وأدخل فيها أجزاء من الأراضي المصرية مما يقع في شرقي وادي النيل ويعتبر العرب المنبع الأصلي للهجرات السامية التي تدفقت على مواقع الحضارة القديمة وأسهمت في بنائها وتطورها .

ويجب أن نتذكر في هذا السياق اتساع شبه الجزيرة العربية (فهي أكبر شبه جزيرة في العالم) وتعدد بيئاتها وتفاوتها في أحوال

الأرض وأحوال الطقس، حيث فيها الصحارى الجافة، والواحات المربعة، والجبال المرتفعة ، والسهول المنبسطة ، والسواحل الممتدة، ومن ثم فلا عجب أن يختلف مناخها كما تختلف طبيعة أرضها وأن يكون لهذه الاختلافات آثارها البعيدة في تكوين مجتمعاتها وتفاوت حالاتها من الحضارة، فليست القبائل التي كانت تسكنها جميعا على حال من البداوة تنتقل في طلب الكلإ والماء ولا تعرف الاستقرار ، بل كان إلى جانب أهل الوبر من البدو أهل المدر المقيمون في الحواضر، وبينهم الزراع والصناع وأصحاب الحرف والصناعات ، وبين الفئتين فئة ثالثة لا توغل في الصحراء فتعيش معيشتها الآبدة ولكنها تنتقل عند أطراف الحواضر وتتصل بها .

وكان العرب أهل تجارة عرفوا أصولها، وتفاعلوا بواسطتها بعضهم مع بعد، ومع البلاد والشعوب المختلفة، وكان موقع الوطن العربي وسطا بين القارات، مما ساعد على نمو التجارة وعلى التقاء الحضارات. فقد توالت على هذا الوطن قديما ووسيطا الهجرات والغزوات ونزحت إليه الجماعات طامعة أحيانا ومستقرة أحيانا أخرى، وكلها في النهاية كانت تأتي لتأخذ من حضارته أكثر مما تعطي، وتتأثر بها أكثر مما تتركه لها، مع الميل إلى الانصهار في مجتمعاته والاندماج بها لتبقى شعوب هذا الوطن قادرة على الاستمرار من مرحلة لأخرى ومن عصر لعصر ، قادرة

على الاتصال بالحضارات الأخرى والتفاعل معها .

ولعل أفضل مثال لذلك – الإغريق – حينما قدموا إلى الشام ومصر غزاة أولا، ثم تجارا ثم سكانا مقيمين، ولكنهم لم يتمكنوا من تحويل البلاد إلى حضارتهم وثقافتهم على الرغم مما تركوه فيها من آثار مادية ومعنوية، بل إنهم تقربوا من المصريين وأعجبوا بلغتهم وتأثروا بها. كما أن اليونانيين اقتبسوا نظام الأوزان وصك النقود من البابليين، كما برع اليونانيون في بناء السفن وفي الملاحة ولكنهم اتبعوا في ذلك الفينيقيين الذين كانوا سابقين في فنون البحار وفنون التجارة وعملوا على التبادل الحضاري أوسع ما يكون.

وجاء الرومان على غرار الإغريق، يسعون إلى الحكم والسيطرة، فامتدت امبراطوريتهم إلى أجزاء كثيرة من الوطن العربي، وظلت شعوب هذا الوطن محتفظة بكيانها وبشخصيتها .

2 – الكتابة كمقوم من مقومات الحضارة العربية

تعتبر الكتابة ركناً أساسياً في نشأة الحضارات وتطورها. وقد ظهرت الكتابة لأول مرة في صيغة المقاطع في وادي الرافدين وعرفت بالخط المسماري، وفي صيغة الصور في وادي النيل وعرفت بالهيروغليفية ، فكانت في الحالين فتحا حضاريا على غاية من الأهمية ، وقد تطورت الصيغتان وانتشرتا في البلاد المجاورة

واستخدمتا في تدوين شؤون الحياة العملية والدينية والثقافية. وجاء ابتكار الأبجدية على أيدي الفينيقيين في لبنان فتحا حضاريا آخراً يسر الكتابة وجودها من حيث تعلمها وانتشارها .

وتعددت نماذج خطوط الأبجدية فظهر منها الخط النبطي ولعله كان أصلا للخط العربي الذي عرف منذ مطلع القرن الرابع الميلادي على اقل تقدير ودون به القرآن الكريم. وقيل أن الخط العربي إنما تطور عن الخط المسند المعروف باليمن والذي انتقل إلى الحيرة ثم الأنبار فاقتبسته قريش من الحجاز .

وهناك دلائل تشير إلى حظ من شيوع الكتابة وقيام المدارس لتعليمها في الحواضر العربية قبل الإسلام، كما تشير إلى تعدد أدواتها وانتشارها واعتمادها في تقييد شؤون الحياة العامة وفي تدوين النتاج الثقافي للعرب، وبخاصة الشعر. وكان من العرب من يعرف اللغات الأجنبية كالعبرانية والسريانية والفارسية . أما وصف العرب بالجاهلية والأمية فلعله ذا دلالة على الناحية الدينية، وغلبة الوثنية عليهم تمييزا لهم عمن اهتدى بنور الإسلام .

3 – اللغة العربية

إن اللغة هي الوعاء الذي يحمل ثقافة أي أمة، والمتأمل للغة العربية، يجد فيها من الغنى والحيوية مافيها، بدءا من سلامة مخارج حروفها ووفرة مفرداتها، فمرونتها وصلاحها للاشتقاق،

وأصولها وقواعدها ودقتها في التعبير عن الحياة العملية والعقلية والوجدانية وجمال أساليبها، وكل هذه العوامل جعلها أهلا لأن ينزل القرآن الكريم بها ؛ الأمر الذي أدى إلى ازدهار الثقافة العربية وجعلها في تطور متواصل ثم زادها الإسلام غنى واتجه بها وجهتها الإنسانية .

وبالعرض للقبائل التي سكنت الوطن العربي، ومعرفتها لأنواع الكتابة وإجادتها للغة يتضح أن الوطن العربي كان مهدا للحضارات القديمة، وأن شعوبه كانت رائدة في ثورة التمدن، وكان للعرب على وجه التحقيق حضارات معروفة باسمها اتصلت بالحضارات الأخرى وتفاعلت معها، وأن غنى اللغة العربية ورقيها شاهد على قدمها واتصال تطورها ، فبلغت الإعجاز بنزول القرآن الكريم بها، وجميع ذلك دليل على عراقة الأمة العربية في الحضارة ، ومساهمتها الفعالة في تطورها .

ثانياً : الوطن العربي مهبط الديانات السماوية

وكما كان الوطن العربي مهد الحضارات الإنسانية الأولى، كان أيضا مهبط الديانات السماوية، حيث كان لتدرج شعوبه في معارج الحضارة مرحلة بعد مرحلة جعل منها أهلا لتقبل رسالات السماء . فقد تنزلت الديانات السماوية الكبرى لأهل الكتاب في أرض هذا الوطن دون سواه.

وقد بقيت في بني إسرائيل عبادة الأوثان بعد دعوة إبراهيم عليه السلام وظهور الأنبياء، فعبدوا عجل الذهب في سيناء. وقد دعاهم موسى عليه السلام إلى التوحيد ونبذ الأصنام ، ولكنهم ظلوا من بعده ينسبون إلى الإله – تعالى عما يصفون – أعمال الإنسان وحركاته. وخلت كتبهم من ذكر البعث واليوم الآخر، ومازالوا يضيقون أفق العبادة ويحصرون مجال الحظوة عندهم جيلا بعد جيل.

ولد المسيح وكان الشرق يترقب رسالته ويتطلع إلى اعتقاد جديد، حيث كان اليهود يترقبون المسيح المنتظر ملكا من ملوكهم فاتحا ظافرا لقمع أعدائهم بالحديد والنار، فلما تطاول الزمن يئسوا من الخلاص على أيدي الفاتحين الظافرين وتحولوا إلى الرجاء في مسيح يأتي بالخلاص في عالم الروح. وبعث الله السيد المسيح رسولا وانتشرت رسالته وسرت إلى الشعوب خارج فلسطين، فكانت فتحا في عالم الروح نقلت العبادة من المظاهر والمراسم إلى الحقائق الأبدية ونقلتها من عالم الحس إلى عالم الضمير. وكانت رسالته في جوهرها تبشيرا بالرحمة والمحبة، ولكن تشعبت بعده المذاهب المسيحية بين قائل بطبيعة واحدة للسيد المسيح، وقائل بطبيعتين هما الإنسانية والإلهية، وبين مؤله للسيدة مريم ، وبين منكر لهذا التأليه ، وبين مفسر لبنوة المسيح على المجاز أو على الحقيقة .

ولقد عرف العرب جوانب عديدة من اليهودية والمسيحية، سواء عن طريق رحلاتهم إلى شمال شبه الجزيرة العربية أو عن طريق هجرة الوافدين إليها من أتباعهما ، وتسربت الديانتان إلى بعضهم، فتهودت فئة قليلة ، وتنصرت فئات أكبر عددا وأثرا ، واشتملت تلك الفئات على قبائل بتمامها ، وظل أكثر العرب في الجاهلية يعبدون الأسلاف في صورة الأصنام ، وبعضهم يعرف «الله» ولكنه يتقرب إليه عن طريق الأوثان فكانوا في عماية وضلال .

ثم جاء الإسلام ليتمم دعوات الأنبياء ويختم رسالات السماء ويصحح عقيدة التوحيد ويكملها ، ويعرف بالله وحده لاشريك له، بصفات الجمال والجلال في غاية التنزيه والكمال. مبينا أن الله رب العالمين خلق الناس ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى، ولا يأخذ إنساناً بذنب إنسان، ولا يحاسب قوما خلفوا بجريرة قوم سلفوا، وهو دين الرحمة والمساواة فاستقبلته النفوس الصافية واستجابت لدعوته لسلامة مبادئه وملاءمتها للفطرة .

ولقي النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقي أتباعه الأولون أذى المشركين وعنتهم ، فصبر وصبر المسلمون معه حتى أذن الله لهم بالنصر، ثم واجه المسلمون جيوش فارس والروم معا كل منهما في ميادينه ، وهي جيوش أكبر منهم عدة وعددا ، وانتهت هذه المعارك في بضع سنوات إلى نصر مبين للعرب المسلمين في حركة

لم يعرف لها التاريخ مثيلا . وقد كانت العقيدة الصافية وما تميزت به من خصائص السبب الأول الذي مكن الإسلام من الانتشار في بضع سنوات ، ولم تكن خشونة البادية أو المطامع والمكاسب المادية .

إن أهم ما يميز الوطن العربي عن غيره من الأوطان أنه مهد الديانات السماوية والقيم الروحية، نبتت فيه، ودافع عنها، وحافظ على استمرارها، إدراكا منه لرسالته الإنسانية الكبرى، وهذا يجعل التربية العربية أمام مسئولية دائمة من حيث تمسكها بهذه القيم ، والعمل على تكوين الشخصية العربية وتسليحها بما يدعمها في تفاعل المواطن مع أحوال مجتمعه المتطور ومع المتغيرات المختلفة في العالم المحيط به .

ثالثاً : أسس المجتمع الإسلامي

جاء الإسلام ثورة حضارية كبرى بما تميز به من عقيدة صافية وبما وضع من نظام لحياة الإنسان وحياة المجتمع ، وكذلك بما دعا إليه من أخوة إنسانية شاملة. كذلك كان الإسلام ثورة حضارية بما أدى إليه من وحدة العرب وقيامهم بأمانة الدعوة ؛ الأمر الذي أدى إلى التفاعل الإيجابي مع الشعوب الأخرى لتكوين حضارة شاملة أغنت الإنسانية قرونا طويلة وما تزال قادرة على الإسهام في إغنائها وتطورها. فالإسلام ثورة حضارية كبرى في مجال

العقيدة والفكر، وثورة حضارية كبرى في مجال الواقع لتطور الأمم والشعوب .

ولا يسع هذه الصفحات أن تتناول بالتفصيل كل ما يتعلق بتلك الثورة عقيدة ونظاما وحضارة، فهذا أمر تقصر دونه المجلدات، ولكن يمكن أن نومئ إشارات سريعة نستخلص منها حقيقة ناصعة نؤكد فيها جلال قدرها وقدرتها أن تكون أساسا لإصلاح المجتمع العربي وإصلاح أحوال التربية فيه، بل ما أحراها أن تكون أساسا لإصلاح الحضارة المعاصرة والإنسانية عامة. ومن أهم تلك الأسس مايلي :

1 – التوحيد :

لقد جاء الإسلام بأسمى عقيدة في الإله الواحد، لا تجعل لله شريكا ولا مشابها ، ولا تجعل له مثيلا في الحس ولا في الضمير والوحدانية كما يقررها الإسلام شاملة لوحدانية الرب ، فلا خالق ولا مدبر ولا متصرف إلا الله ، ولوحدانية الألوهية فلا معبود ولا مقصود ولا مستعان سواه. فالله واحد لاشريك له ، خالق كل شيء ، له المثل الأعلى والصفات الحسنى : تجتمع له صفات القوة والقدرة ، وصفات العلم والإرادة ، وصفات الرحمة والغفران ، وصفات العدل والإحسان ، وصفات الكمال جمعاء.

والعالم مخلوق خلقه الله ويفنى كما وجد بمشيئة الله أودع فيه

أسرار تكوينه وبناه في نظام وإحكام ، وجعله وحدة متماسكة الأطراف وأجراه على سنن ثابتة «... فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلا» آية (43) سورة فاطر. والإسلام يدعو الإنسان إلى تأمل هذا الكون ودراسته والتفكير في نظامه وسننه وتقدير ما فيه من معاني الوجود ومعاني الحياة .

كما أن عقيدة الإسلام في النبوة مصححة لما جاء عنها في عقائد الأقدمين متممة لها حيث خلصت من بقايا السحر والكهانة ومن الوهم والإيهام ومن دعوى الخوارق والمغيبات ، فقد أكد النبي (صلى الله عليه وسلم) على أنه إنسان كسائر الناس ، بشير يهدى إلى الحق والرشد ، نذير يحذر من الباطل والضلال، لا يعلم الغيب، ولا يدفع السوء عن نفسه فضلا عن قومه. قال الله تعالى : «قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون» آية (188) الأعراف، وقوله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة : «يا فاطمة بنت محمد ، اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئا».

2 – النظرة الشاملة للإنسان:

ومع مبدأ التوحيد والنظرة إلى ما في الكون من نظام يخص الإسلام الإنسان بتصور شامل متكامل، يتضمن التأكيد على

التوازن بين الروح والجسد ، فهما ملاك الذات الإنسانية لا يجوز للمسلم أن يبخس أيا منهما حقه ومطالبه، ويتبع هذا أنواع أخرى من التوازن بين المعرفة والوجدان، وبين الفكر والعمل، وبين الإرادة والمسؤولية، وهي أنواع متعددة شاملة منظمة لشؤون الحياة عامة.

والمطلوب من الإنسان أن يكسب الطيبات وأن ينعم بها، ويسعى في الأرض يبتغى رزقه فيها، ولا يزهد في شئ من خيراتها، فالسعي في سبيل الدنيا مطلوب كالسعي في سبيل الآخرة، مصداقا لقوله تعالى : «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» آية (10) سورة الملك، وقوله أيضا : «....هوأنشأكم في الأرض واستعمركم فيها...» آية (60) سورة هود.

وبهذه النظرة المتكاملة يسلم الإنسان من التناقض والتنازع والانفصام بين الروح والجسد، وبين العقل والمادة ، وبين السماء والأرض ، وتستقيم له الحياة بنعمتها وجمالها وتوازنها. ويتبع هذه المعاني شعور الإنسان بوحدة شاملة متكاملة في ذاته توحي إليه بالثقة والاطمئنان وتتيح له أن يمارس عبادته من دون وساطة من أحد يتوجه بها إلى الله لا يخشى إلا إياه.

ويؤكد الإسلام احترام العقل ودعوته إلى التعويل عليه ، وفي

القرآن الكريم تأتى هذه الدعوة متكررة للاعتماد على العقل في أمر العقيدة ، وفي شؤون الحياة عامة.

ويتصل بالدعوة إلى العقل الدعوة إلى تحمل الأمانة والمسؤولية وهى مناط الضمير في الإنسان، ولعل أبرز ما وصف به الإنسان في القرآن الكريم أنه مسؤول عن عمله، مكلف بحمل الأمانة ، قال تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان... « آية (72) سورة الأحزاب.

واختصاص الإنسان بالتكليف بين الأحياء والموجودات عامة يجعله أهلاً للارتقاء إلى درجات عالية من الكمال، كما يجعله معرضاً للهبوط إلى الدرك الأسفل من النقص والتقصير. كل هذا رهن بقدرته على السعي إلى العلم وممارسة تفكيره وحسن استخدام حريته وإرادته. ذلك أن التكليف يتصل بالقدرة على العلم ، وهو من مميزات الإنسان الرئيسة، فلا ينهض بالتكليف إلا من يكون قادراً على التفكير وهو فريضة إنسانية ، كما يتصل التكليف بالحرية وبالإرادة.

3 – تنظيم المجتمع :

والنظرة إلى الإنسان في الإسلام لا تنفصل عن النظرة إلى المجتمع، ذلك أن تأكيد تكامل جوانب الإنسان وحقه في

التفكير، وممارسة الحرية والإرادة، وتحمل المسئولية ، لا يعنى أي مجتمع، وإنما يعنى مجتمعا من نوع معين : مجتمعا تتوافر فيه علاقات ومبادئ تتكافأ وتتوافق مع هذه النظرة المتكاملة للإنسان. ففي هذا المجتمع لابد أن تتقرر مقومات أساسية مثل المسئولية الفردية، وعموم الحقوق وتساويها بين الناس، ووجوب الشورى على ولاة الأمور، والتضامن بين المواطنين، وكلها تشكل في ترابطها وتلاحمها، ما نسميه اليوم بالديمقراطية بجوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

فأساس المجتمع السليم إقرار مبادئ الأخوة والتعاون والمساواة والمشاركة القائمة على ممارسة الحقوق والواجبات . ويقرر ذلك ما ورد في القرآن الكريم «إنما المؤمنون إخوة....» آية (10) سورة الحجرات، وقوله « .... وتعاونـوا على البر والتقوى...» آية (2) سورة المائدة ، وكذا قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر .....» آية (110) سورة آل عمران .

وقد وضع الإسلام الأسس التي ينبغي أن تكون لنظام سياسي سليم ، فأساس الحكم هو الشورى والمشاركة «... وأمرهم شورى بينهم... » آية (39) سورة الشورى، «... وشاورهم في الأمر...» آية (159) سورة آل عمران ، وفي الحديث الشريف تفصيل للمسؤولية في مجال رعاية الآخرين وتدبير شؤونهم

«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ، ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته».

وترتبط هذه المبادئ بمبدإ أساسي وهو المساواة بين الناس ، فهم لا يتمايزون إلا بالتقوى، وفي الحديث «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى».

وتكفل الإسلام بتنظيم المجتمع اقتصاديا كما نظمه سياسياً، فهو يبطل الاستغلال، « ...والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم» آية (34) سورة التوبة. ويأمر الإسلام بتوزيع المال «... كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم...» آية (7) سورة الحشر . وقد حرم الله أكل الربا «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون» آية (130) آل عمران ، كما حرم الاحتكار وقدس العمل، «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ...» آية (130) التوبة، وفي الحديث «إن أفضل الكسب كسب الرجل من يده» ومع هذا فقد عنى الإسلام بمن يعجزون عن العمل لسبب ما في غير اختيار ولا تبطل حيث فرض لهم الزكاة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله...»

آية (60) التوبة ، «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ...» آية (130) التوبة. وفي حديث أركان الإسلام عد النبي صلى الله عليه وسلم منها «إيتاء الزكاة» وهذه المبادئ هي أساس مجتمع الكفاية والعدل لأنها تنكر احتكار الثروة في طبقة واحدة، وتفرض على المجتمع كفالة أبنائه من العجزة والضعفاء والمحرومين ، وتجعل حق الفرد رهينا بمصلحة الجماعة ؛ الأمر الذي يحقق عدالة اجتماعية حقة بخلاف الأنظمة والفلسفات الحديثة التي جاءت ببعض تلك المبادئ لكنها ظلت عاجزة عن تنظيم المجتمع كما قامت به الفلسفة الإسلامية.

وعلى هذا النحو عني الإسلام عناية كبيرة بالعلاقات الاجتماعية السليمة، فالتعاون بالرأي والعمل، والاستناد فيهما إلى سلامة الخلق، والمشاركة في الشعور أمر يوجبه الإسلام «... وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان...» آية (2) سورة المائدة، «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...» آية (104) سورة آل عمران، «والعصر (1) إن الانسان لفي خسر (2) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر (3)» سورة العصر ، ويؤكد هذا المضمون الاجتماعي للمجتمع الإسلامي أنه لا سيادة لطبقة فيه على طبقة ولا استئثار بالسلطة لأحد دون أحد ، إن ما انطوى عليه الإسلام من أوامر ونواهي، وما فرضه من آداب في

السلوك والمعاملة ، إنما هو قوام لكل الأخلاق الإسلامية، وهي صالحة للأخذ بها في مجتمع قائم على المساواة والتعاون بين الأقوياء والضعفاء ، وبين الصغير والكبير، وبين الحاكم والمحكوم، وبين المنتج والمستهلك، وبين العامل وصاحب العمل .

4 – شمول النظرة إلى الإنسانية :

وتسري النظرة الشاملة في الإسلام للإنسان والمجتمع على الإنسانية جمعاء. فهو دين موجه للناس أجمعين ذكورا وإناثا على تعدد أجناسهم ولغاتهم وألوانهم وبيئاتهم وأزمانهم، فالمساواة هي الأساس، والعمل الصالح هو المعيار في التمييز بينهم. «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم...» آية (13) سورة الحجرات، « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ...» آية (158) الأعراف .

وهذه الفكرة عن الإنسانية يأتي بها الإسلام غير مسبوق بعقيدة سالفة أو بفلسفة مدونة ، فهو عقيدة وشريعة ربانية شاملة، جعلت الأمم والشعوب تتفاوت في العلوم والشأن بمقدار العلم والعمل .

كما أن الإسلام لا يرى مجرد المخالفة في الدين تبيح العداوة والبغضاء وتمنع المسالمة أو التعاون على شئون الحياة العامة فضلا عن أن تبيح القتال لأجل تلك المخالفة باستثناء المشركين الذين

يعبدون غير الله أو ينكرون وجوده، فلم يبح الإسلام للمسلم أن يرتبط بهم مثل هذا الارتباط.

رابعاً : مجتمع المدينة المنورة كنموذج تطبيقي

إذا كان كثير من الفلاسفة والمصلحين قد نادوا بمبادئ تربوية وآراء فلسفية نظرية لم يكتب لها التطبيق الكامل، كما فعل أفلاطون في مدينته الفاضلة، ولينين وماركس وغيرهم، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وضع مبادئ وأسس لمدينته المنورة اتسمت بالتطبيق والممارسة من قبله، وبالالتزام والاهتداء من قبل صحابته وأتباعه. لقد أنشأ الرسول صلى الله عليه وسلم مجتمعا حضاريا أساسه التقوى والعمل الصالح، بعيدا عن القبليات والعصبيات، مطبقا العدل والمساواة بين جميع الناس «... وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم .....» آية (15) الشورى ، «... ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ...» آية (8) المائدة ، وكذا قوله صلى الله عليه وسلم «والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» دليل على العدل والمساواة .

لقد كانت يثرب تموج بالخلافات والحروب الكثيرة والطويلة بين الأوس والخزرج، وكلما وضعت الحرب أوزارها كانت تضرم من جديد بأيدي طوائف اليهود الموجودة حينئذ وهي : بنو قينقاع – بنو النضير – بنو قريظة – خيبر ، حيث كانوا هم

المستفيدين الأوائل من تلك الحروب، وعندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بدأ بعقد المؤاخاة بين الأوس والخزرج «الأنصار» من ناحية، وبينهم وبين المهاجرين – الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فرارا بدينهم وعقيدتهم – من ناحية أخرى، والتاريخ يضرب لنا أروع الأمثلة والنماذج في تلك المؤاخاة ، حتى إن أحدهم ليتبرع بنصف ماله ونصف داره للمهاجر، وعلى الطرف الآخر نجد العفة من قبل المهاجرين، حيث يدعو لأخيه ويشكره ويطلب منه أن يدله على السوق، وفيهم نزل قوله تعالى «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» آية (9) سورة الحشر. ثم عقد الرسول صلى الله عليه وسلم صلحا مع اليهود ، وبهذا أمن الجبهة الداخلية حتى يستطيع إنشاء حضارة قوامها الحب والإخاء على أسس التقوى والعدل .

وبهذا ازدهر مجتمع المدينة من المهاجرين والأنصار بتعاليم الدين الجديد، فسمت نفوس المؤمنين بالتوحيد وبالخضوع لله دون غيره، وخلصت الأخلاق من الأثرة ومن الطمع والتعلق بالمنافع الشخصية والقبلية، ومن التفاخر والتكاثر والكبر والعظمة واتسمت بالصفاء والبساطة وبالتعاون والإيثار، والتعويل على العقل والضمير، وعلى الشورى في تصريف الأمور ، وبالاستعداد

للجهاد وللشهادة في سبيل نشر الدعوة .

وقد كان السبب في كل ذلك بعد الإيمان بالله تعالى وحده، هذا النموذج الإنساني الرفيع صاحب الرسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، قدوة حسنة تعلم على يديه أصحابه المقربون فكانوا بهدايته وتوجيهه شخصيات عظيمة عقلا وحكمة وعدلا وتقوى وشجاعة ، عرفهم التاريخ مثلا عالية لا تضارع في توحيد الأمة وتأسيس الدولة وإنشاء الحضارة .

وهكذا يكون الدين الجديد مطهرا للأخلاق ومهذبا وكاشفا للشخصيات القيادية، ومحدثا لثورة تملأ النفوس غيرة وحماسا في نشر الدعوة ، فاندفع ذلك المجتمع قوة غالبة مكنت المسلمين في سنوات قليلة من نشر الدعوة في شبه الجزيرة العربية كلها، ومكنتهم في سنوات قليلة أخرى من إنجاز حركة فاصلة من حركات التاريخ الكبرى ، وضعت الأسس لحضارة هي لاريب من أبرز الحضارات الإنسانية على مر العصور.

وما أحرى أن يوصف ذلك المجتمع في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم وفي عهد خلفائه الراشدين بالمجتمع المتعلم ،.بما تدل عليه العبارة من تفتح في الشخصية الإنسانية وحركة مستمرة في تطورها، ومن صفاء في الأخلاق ، وطهارة في النفوس، ومن تعويل على العقل والضمير، ومن تعاون وتكافل، ومن شورى في

الرأي والتدبير.

ولا يعني هذا الوصف أن المجتمع العربي قد سلم كله من آثار الجاهلية وما فيها من عصبية قبلية، ومن انتقام وأخذ بالثأر، ومن إقبال على الملذات أو أطماع في الحكم والتسلط، بل لقد ظل النزاع مستمرا بين الأخلاق الإسلامية والأخلاق الجاهلية وما يترتب عليهما من أنماط السلوك والمواقف في الحياة، حيث ظهرت بعد الخلفاء الراشدين فئات اعتراها الضعف البشري كما هو الشأن في أطوار الحضارات عامة، وأعيت أن تنهض بتبعات القيم السامية وظلت أسيرة لشهواتها وللنزعات الشخصية والقبلية.

وإذا كان الإسلام وما ينطوي عليه من مبادئ وقيم سامية مستمرة، يعتبر نظام حياة شاملا متكاملا في تفاعله مع ظروف الزمان والمكان، فلابد من النظر إلى أهداف التربية واتجاهاتها وبرامجها في حاضرها ومستقبلها من خلال هذه المبادئ والقيم، فهي تؤكد مكانة الإنسان في الوجود، وشمول النظرة إلى تكوينه وحقوقه وواجباته، ومقومات المجتمع الذي يضمن لهذا الانسان النمو والتقدم، والذي يضمن للعالم السلام والرخاء. وكلها مبادئ تسعى إليها أرقى النظم الاجتماعية المعاصرة، وتحاول المذاهب التربوية الحديثة تمثلها والدعوة إليها.

خامساً: الجوانب الثقافية والعلمية للحضارة العربية:

كان من الآثار المهمة للحضارة الإسلامية وما نتج عنها من ثورة في النفوس وما تولد عنها من حركة تاريخية كبرى نشاط بارز في الحياة الثقافية والعلمية للأمة ، تجلى أولا في مجتمع المدينة نفسها، وما لبث أن انتشر إلى الأمصار بعد فتحها . فقد كان النشاط الثقافي في المدينة أساسا ومنطلقا لحركات ثقافية وعلمية ظلت تتزايد في الأمصار، وتنتشر في مشرق الوطن العربي ثم في مغربه ، حتى بلغت قمة ازدهارها بين القرن الرابع والقرن السادس الهجري على وجه التقريب. فمرت بعهد انطلاق وتأسيس، وعهد نمو وترسيخ، وعهد نضج وازدهار.وهي مراحل متداخلة لا تكاد تقوم فواصل قاطعة بينها في الميدان الواحد ولا في الميادين المتعددة للمعرفة .

ويمكن توضيح بعض إسهامات العرب الكبرى في مجال العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية فيما يلي :

1 – العلوم الإنسانية : وتتضمن مايلي :

أ – حركة العلوم الدينية :

وكانت هذه الحركة امتدادا للنشاط الثقافي الذي نشأ في المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وظل محورها القرآن والسنة، وتطبيق أحكامهما في واقع الحياة الاجتماعية .

وقد نشأت الحاجة أولا إلى تدوين نصوص القرآن فاتبعت منهجية سليمة في أغراضها وبواعثها ، سليمة في أصولها ونتائجها فظلت النصوص تسمو على الجدال والخلاف ، وكانت عملية التدوين قدوة لما تلاها من تدوين الحديث وتدوين اللغة والتاريخ مما رسخ للعرب المنهجية العلمية التي عرفت عنهم في الرواية والإسناد ، وفي معارضة النصوص ونقدها وتمحيصها .

وقد تفرع عن تلك المنهجية العلمية أسلوب أصبح مأثورا عن العرب وهو أسلوب الرحلات في طلب الحقائق وفي جمعها وترتيبها . وكان من أبرز أعلامه في الحديث البخاري، وفي التاريخ الطبري، وفي اللغة الأصمعي .

ومن الطبيعي أن يستند التشريع والقضاء إلى القرآن الكريم والسنة ، ولكن مع تطور المجتمع العربي وفتح الأمصار وظهور مسائل جديدة لم ترد فيها نصوص صريحة في هذين المصدرين ، نشأت الحاجة إلى أساليب مبتكرة تقوم في أساسها على الاجتهاد والتفكير ، وعلى الإجماع ورعاية المصالح العامة وهي1 – القياس، 2 – الاجتهاد، 3 – الاستحسان، 4 – المصالح المرسلة حيث كانت هذه الأساليب عماد علم الفقه والتشريع.

وتعددت مذاهب الفقه الإسلامي، ولكنها في عمومها تلتقي في وحدة عامة تجمعها، وهذا ما أخذ به معظم الفقهاء، حيث عدّوا

الاختلاف في التفاصيل لا يحول دون الإجماع . وقد أفضى تطبيق هذه الأساليب إلى تطور علم الفقه وإغنائه فكرا وتطبيقا، حتى إنه ليعده التشريع الإسلامي ركنا من أركان الحضارة العربية الإسلامية، ومجالا لإبراز أصول العقيدة في نظام تشريعي، يبلغ منزلة عالية بين تشريعات الحضارات الإنسانية .

ويمكن التأكيد في هذا الاستعراض الموجز على ثلاث حقائق رئيسة :

الأولى : تفاعل العقيدة الإسلامية مع تطور مجتمعها وصلاحها ومرونتها في الاستجابة لحاجاته ومشكلاته المتجددة .

والثانية :اعتماد العقل في التشريع قياسا واجتهادا واستحسانا ، وعدم الجمود عند النصوص ذاتها .

والثالثة : مراعاة المصالح العامة وتفضيلها المسائل المستجدة حينما كانت مما لم يرد عنه نص أو نظير.

وقد برزت منذ القرن الأول الهجري مسائل في العقيدة الإسلامية يقتضي النظر فيها وإخضاعها للتفكير والاستدلال العقلي، وكان ذلك داعيا لنشأة علم الكلام في خضم الخلافات السياسية، فتكونت فرق الخوارج والشيعة والمرجئة، ومحورها مسألة الخلافة وشروط من يتولاها ومسئوليته، ونشأت فرقة المعتزلة وعنيت في بحث مسائل العقيدة بجملتها ولعل أبرز

بواعث نشأتها بواعث فكرية دينية، تتجلى في الوقوف في وجه «زندقة الشعوبية».

وقد اقتضى الأمر التأمل في نصوص القرآن وفهمها وتأويلها ؛ الأمر الذي أدى إلى معارضة رجال الحديث حيث حسبوا أن هذا إسراف في التأويل. وحسبنا أن نؤكد في هذا المقام تفاعل العقيدة بقضايا المجتمع ومعالجة ما نشأ عن هذا التفاعل من مسائل بالاحتكام إلى الاستدلال العقلي وتطبيقه على العقيدة نفسها ، وتوافر الحرية الفكرية لهذا التطبيق، وعلى نشأة علم الكلام على أصول عربية خالصة كما يرى أغلب المؤرخين . ولا يمنع هذا أن يكون هذا العلم قد استفاد من أصول منطقية منقولة عن ثقافات أخرى في مرحلة تالية من تطوره .

ب- الحركة الأدبية :

أما الحركة الأدبية فبواعث نشاطها متعددة ، منها طبيعة العقيدة وطبيعة اللغة العربية، ومنها المذاهب السياسية والاجتماعية والثقافية. إن إعجاز القرآن الكريم في بيانه دليل واضح على ما بلغته العربية عند نزوله من الدقة والإحكام، ومن الصلاح لان تكون لغة التفكير والتعبير، والعرب أمة تعتز بلغتها وتحرص عليها. والحديث يقتدي بالقرآن في بلاغته ويبلغ من أساليب العربية شأنا عاليا ، فهما معا جديران باجتذاب الدارسين وإغناء الدراسات

اللغوية والدينية على السواء. وعندما انتشر العرب في الأمصار وخالطوا أقواما أخرى، خافوا من انتشار اللحن وفساد اللغة؛ الأمر الذي أدى إلى وضع علوم النحو والصرف والعروض، ووضع المعاجم والمدونات في مفردات اللغة ومعانيها ومعارضة اللهجات فيها . وقد كشفت هذه العلوم بجملتها عن غنى اللغة العربية ومكانتها من حيث وفرة مفرداتها وقواعد الاشتقاق فيها واتساع أساليبها، كما كشفت عن جهود الباحثين وشغفهم بموضوعاتها وجلدهم على دراستها.

كما أدى تعدد المذاهب السياسية والاجتماعية والثقافية إلى تنوع المذاهب الأدبية وتوزيع الشعراء بينها. وتعددت أنواع الشعر، فنشأ الشعر السياسي بتحريض الخلفاء والأمراء والتقرب منهم، وأسرف في باب المدح فنقص في صدق العاطفة وتعرض للابتذال. وكان الشعر العربي عامة نموذجا عاليا للشعر الغنائي في مختلف العصور، واتسع للعاطفة كما اتسع للحكمة ، وظهر فيه من العبقريات التي تكشف عن صورة شاملة للحياة وفلسفة عميقة لها، وحسبنا أن نذكر في هذا المقام المتنبي والمعري وابن الرومي .

كما تطور النثر العربي تطورا واسعا، حيث اتسعت مجالاته وتعددت أساليبه واستوعبت مطالب الأدب ومطالب العلم والفلسفة ، وكان في تطوره دلالة على ما في اللغة العربية من قوة

وعمق ومرونة وصلاح لاستيعاب العلوم والفنون ولعل من أبرز هؤلاء الجاحظ وأبي حيان التوحيدي .

ويعتبر أخطر ما طرأ على الحركة الأدبية استغلال الشعوبية لها، حيث نشروا كتابات تبث الزندقة كما تبث العداوة للعرب والطعن فيهم ، ونشأ للرد على هذه الكتابات أدب عربي قوي في حجته وفي مادته سليم في أغراضه ومقاصده. وعلى الرغم من هذا، فقد ظلت الحركة الأدبية متنامية غنية تجاوزت المشرق العربي إلى المغرب العربي، وأتاحت فضلا عن نشأة علومها ووفرة إنتاجها وتنوعه، ظهور عبقريات عربية تفتخر بها الثقافة الإنسانية على مر العصور.

جـ – الحركة التاريخية :

وللحركة التاريخية بواعث شبيهة بالحركة الأدبية على تعددها، ففيها من العقيدة ومن اعتزاز العرب بأيامهم وأخبارهم ، وفيها من عوامل السياسة والثقافة والاجتماع، وفيها مع هذا وفوق هذا من البواعث العلمية لتحري الحقائق وتمحصيها. وكما استند الحديث واللغة إلى منهجية الرواية والإسناد، استندت الحركة التاريخية إلى هذه المنهجية أيضا .

وإذا كانت بعض الكتابات التاريخية قد تأثرت بعوامل السياسة وبأحوال عصرها ، فقد اجتمع للعربية مراجع في التاريخ هي من

أعلى ما ظهر في الأمم القديمة الأخرى مكانة وأكثرها وفاء ودقة ، وشملت كتب السيرة وكتب الفتوح وكتب تطور الأمم وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

د – حركة النقل والترجمة :

نشأت في أواخر القرن الأول الهجري حركة ترجمة الثقافات الأجنبية ، ولعل اليونانية كانت من أكبر وأول تلك الثقافات التي تمت ترجمتها ، ثم اتسعت مجالات الترجمة وتعددت مراكزها واللغات والثقافات التي نقلت عنها فكان منها الفارسية والهندية إلى جانب اليونانية .

وتوجد عدة بواعث ساعدت على تطور ونمو حركة الترجمة منها :

• المواقف الإنسانية والعقلانية التي يتخذها الإسلام من حيث خلاصه من النزعات العنصرية ومن حيث اعتمادها على العقل والتفكير والاتصال بالثقافات الأخرى .

• حاجة العرب إلى علوم ليست عندهم ، يخصون منها ما كان ذا منافع في حياتهم الواقعية كالطب والحساب والفلك .

• تطور المجتمع العربي واتساع اتصاله بالشعوب الأخرى سواء من دخلت في الإسلام أو بقيت على عقائدها واستقرت في الأمصار ، وما تولد عن هذا الاتصال من تبادل الثقافات باعتباره

مظهرا من مظاهر الحضارة .

• اهتمام بعض الخلفاء برعاية العلم والعلماء وحسن مكافآتهم لهم وعنايتهم بالتعرف على ثقافات الأمم الأخرى، ولعل هذا الاهتمام قد برز على أشده عندما أنشأ المأمون بيت الحكمة في بغداد.

هـ – الفلسفة :

سبقت الإشارة إلى أن علم الكلام كان نشأة عربية خالصة، وهو يعد فرعا من فروع الفلسفة ، كما تمت الإشارة إلى حركة الترجمة، وقد كان كثير من الكتب المترجمة عن اليونانية من كتب الفلسفة. والكندي أول فيلسوف عربي بالمعنى المحدد للفلسفة وله مباحث في العلوم، وفي تبكير ظهوره قبل ازدهار الترجمة دليل آخر على أصالة الفلسفة العربية ونزعة العقل العربي إلى تناولها، وقد ترجمت كتبه في أوربا منذ أول عهد العالم بالطباعة، والفارابي من أبرز أعلام فلاسفة الإسلام، حيث فهم منطق أرسطو ونقد نصوصه وخلصها من الاضطراب، ونقلت كتبه إلى أوربا فكان لها تأثير كبير في حركتها الفكرية.

والشيخ الرئيس ابن سينا كالكندي في الجمع بين العلم والفلسفة، وكانت له مساهمة كبيرة في الطب ووقف موقف الناقد من آراء أفلاطون في النفس، وتأثر الأوربيون بعلم ابن سينا

وطبه كما تأثروا بفلسفته العقلانية .

ووقف الغزالي موقف الناقد لكثير من آراء الفلاسفة اليونانيين ومن تابعهم من المسلمين وحاسبهم على ما في تلك الآراء من الضعف والتهافت. وقد سبق ديكارت إلى مذهب الشك ، غير أن شكه أشمل وأعمق، فهو يرى أن للعقل حدودا في المعرفة يقصر عما وراءها. ويرى من تجربته أن العقل قد صحح إيمانه ولكنه يميل إلى تجنيب العامة جدال الفلسفة حيثما كان عقيماً يخشى على إيمانهم منه.

وقد نشأ هؤلاء الأعلام الأربعة في المشرق العربي، في حين نشأ فريق من الفلاسفة في المغرب العربي كانوا أكثر ميلا إلى الفصل بين الدين وبين الفلسفة ، ويشذ عنهم في هذا ابن حزم ، وهو أميل إلى الشمول وتعدد المجالات – كفلاسفة المشرق – حيث كان فقيها من الأشعرية يدافع عن مذهب أهل السنة في كتابه «الملل والنحل»، وله آراء في المعرفة وتعدد مصادرها بين الحواس وبداهة العقل والبرهان .

ويجري على هذا النحو ابن الطفيل في رسالة حي بني يقظان ، وكان لهذه الرسالة تأثير كبير في أوربا. كما قام ابن رشد – وهو من أعظم فلاسفة الإسلام – بشرح فلسفة أرسطو حتى وصفه الأوربيون «بالشارح» بل تعدى الشرح والتفسير إلى التعديل

والتصحيح، واقتبس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها، والتي كان من حسناتها أن أطلقت بينهم مجال البحث والمناقشة وحرية الرأي والتفكير .

أما ابن خلدون، وهو صاحب فلسفة اجتماعية متكاملة، فقد نظر في تكوين المجتمعات وتطويرها وفي أسباب نموها وازدهارها ومن ثم ضعفها وانحلالها، وآراؤه في ذلك تعتبر أسسا رصينة لنشأة علم التاريخ ونشأة علم الاجتماع.

تلك بعض الملاحظات الموجزة عن الفلسفة الإسلامية في آراء بعض أعلامها، يتضح منها اتصالها بالفلسفة اليونانية خاصة، ووقوفها موقف الناقد وموقف الشارح معا، فضلا عن تجاوزها إلى الإبداع والابتكار، كما يتضح منها تعدد المذاهب وتمايزها، واتساع الحرية الفكرية لاتجاهاتها.

2 – العلوم الطبيعية :

وكما أسهم العرب في مجال العلوم الإنسانية أسهموا في مجال العلوم الطبيعية ، وقد اتجهت عنايتهم أصلا إلى ما كان منها ذات صفة عملية متصلة بحاجاتهم الواقعية كالرياضيات والفلك والطب، فبدأوا بنقل كتبها إلى اللغة العربية .

وسوف نستعرض في هذا المجال لبعض هذه العلوم :

أ – الرياضيات والفلك والجغرافيا :

فقد نقل العرب الأرقام الهندية ووحدوا أشكالها ، وعرفوا الصفر ونظام الكسر العشري ، وكان لهم السبق في استخراج نسبة محيط الدائرة إلى قطرها ، والعلم مدين للخوارزمي في تحسين الأرقام ، ووضعها موضع التطبيق والانتفاع منها ، كما هو مدين له بوصفه واضع علم الجبر ، وللعرب فضل كبير في التمهيد لنشأة علم التفاضل والتكامل .

وكان لليونانيين والهنود معارف في المثلثات ولكن العرب نظموها وأضافوا إليها بما في ذلك المثلثات الكروية حتى ليمكن أن يقال أن المثلثات هي الأخرى علم عربي ، وإذا كان اليونانيون قد قطعوا شوطا بعيدا في الهندسة ، حيث وضع إقليدس أصول العلم ونظرياته ، فإن العرب قاموا بشرح هذا العلم ووضع تمارين جديدة له ، ونقله عنهم الأوربيون .

واهتدى العرب بالقرآن في إبطال التنجيم ومالوا بعلوم النجوم نحو الحقائق المبنية على الرصد والمشاهدة والاختبار ، وكانوا أول من أنشأ المراصد وأولها ما كان ملحقا ببيت الحكمة الذي أسسه المأمون، واخترعوا آلات تساعدهم في بحوثهم عن النجوم ، وكان من بين ماعملوا على تطويره منها الإسطرلاب والبوصلة.

وهدتهم ملاحظاتهم إلى القول بكروية الأرض وقاسوا محيطها

ومواقع البلدان، وميزوا بين الزمان الشمسي والزمان النجمي، وعرفوا أن للنجوم أبعادا وأحجاما مختلفة، وأن الأرض أصغر من الشمس كثيرا. وهم بالجملة قد نظموا علم الفلك وأصلحوا كثيرا من تفصيلاته بل وأضافوا إليه.

ويتصل بالفلك علم الجغرافية وكانت للعرب فيه مساهمة ضخمة سواء في نظرياته أو في وقائعه وبياناته ، ونقلوا كتاب «المجسطي» لبطليموس وأصلحوا كثيرا من أخطائه وعنهم انتقل إلى أوربا.

واشتهر في المشرق العربي جغرافيون مبرزون أضافوا إلى العلم أحسن التحقيقات في طريق الأرصاد الفلكية ومشاهد الرحلات، ولكن الأندلس هي التي جمعت صفوة هذه المعلومات وأشاعتها في الأقطار الأوربية ، وكان للشريف الإدريسي أعظم الفضل في جمع هذا العلم وتجديده ، وله كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ورسم خريطة للكرة الأرضية كما رسم خريطة لمنابع النيل .

ووردت نصوص لابن رسته (903 م) وللمسعودي (956 م) تدل على أن العرب قد عرفوا كروية الأرض وكان شيوع هذه الآراء من كتب الجغرافية العربية قد مهد لاعتقاد كولومبس بالفكرة ولقيامه بالرحلة إلى أمريكا .

كما كان لابن ماجد كتاب يعتبر من الوثائق الجغرافية الفلكية المهمة، وفيه بيان لفنون الملاحة ، وذكر لعلم جديد هو «علم البحر» وهو ما أصبح معروفا الآن بعلم البحار أو المحيطات .

ب – الكيمياء والفيزياء :

لقد اهتم العرب اهتماما كبيرا بالكيمياء والفيزياء ، وعنوا أولا بالكيمياء وكان من أبرز الأوائل فيها جابر بن حيان الكوفي حيث ترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية وظلت عمدة في ميدانها إلى أواخر القرن التاسع ، واتجهت الكيمياء منذ عهده اتجاها علمياً تجريبيا. وفي هذا الاتجاه ألف الكندي رسالة في بطلان دعوى صنعة الذهب والفضة. وأسهم في ترسيخ هذا الاتجاه في واقع التجارب والدراسات ابوبكر الرازي وكتب في ذلك ابن خلدون.

كما اتجه العرب في علم الطبيعيات اتجاها ماديا آليا ، فأنكروا أن تكون العناصر الأربعة التي قال بها اليونان ذات حياة ، ومالوا إلى القول بالجوهر الفرد بدلا من القول بالعناصر الأربعة ، وكان هذا في اتجاه القول بالذرة .

ودرس العرب الحواس دراسة علمية وافية ، فألف الكندي في المناظر وتابعه ابن سينا بتفصيل أكثر ، وتعمق ابن الهيثم في البصريات، فكان من أكابر الطبيعيين في العصور الوسطى ، وهو أول من قام بتشريح العين ودراسة أجزائها وله فيها رسائل معروفة

في أوربا ، كما أن له نظرية في النور والإضاءة ، وجرب أن يقيس علو طبقة الهواء فوق سطح الأرض وتكلم على امتزاج الألوان وعلى الهالة، كما تناول صحة البصر وأخطاءه بحظ من التفصيل، وكانت آراؤه ونظرياته معروفة اعتمدت أساسا للعلم الحديث.

ج – المخترعات والصناعات :

اهتدى العرب إلى بعض المخترعات والصناعات وأحسنوا استثمارها . فقد اخترع ابن يونس المصري الرقاص ، وتلاه عالم آخر بهذا الاسم نفسه فدرس الرقاص وعرف شيئا كثيرا من خصائصه وقوانينه، واستفاد الأوربيون من هذا الاختراع بعد حوالي سبعة قرون.

ولم يخترع العرب البوصلة أو بيت الإبرة ولكنهم حسنوها وأجادوا استخدامها، وكانت نظريات ابن الهيثم في كتابه «المناظر» أساسا لاكتشاف المجهر والمرقب، والعرب أول من صنع الصابون ، وله عندهم صنفان ، أحدهما من الصودا، والآخر من البوتاس. وهم الذين أدخلوا السكر وجعلوا منه صناعة كبيرة، فقد زرعه الهنود وانتقل منهم إلى فارس ، فعرفه العرب ، وتوسعوا في زراعته وعملوا على استخراجه من قصبه على نطاق واسع، فكانت له صناعة واسعة وتجارة رائجة.

واكتشف الصينيون الورق ، فنقله العرب عنهم وتوسعوا في

صناعته، فكان أداة مهمة لنشر الثقافة وتعميمها بين الناس .

ولم تبلغ الحضارات القديمة ما بلغه العرب من الاعتماد على الكتاب تأليفا ونسخا ونشرا ، فكان وسيلة لحفظ كنوز الثقافة العربية على مر العصور على الرغم مما ضاع منه بسبب حملات التتار والمغول أو بسبب توالي الأيام والسنين .

د – الطب والصيدلية :

كانت للعرب قبل الإسلام معارف طبية نقلوها من الأمم المجاورة أو وصلوا إليها بالتجربة وأفادوا فيها من رعاية الحيوانات وتشريحها، ونهاهم الإسلام عن العلاج بالعزائم والتمائم والتعاويذ، فمالوا إلى الخبرة والمشاهدة واعتمدوا بعد فتوح الأمصار على الأطباء النساطرة وأسهم هؤلاء بترجمة الكتب الطبية.

وأول من أنشاء المستشفيات «البيمارستانات» الوليد بن عبدالملك سنة (588 م) ثم تتابع إنشاؤها في كثير من العواصم والمدن، وكان لبعضها جوانب تعليمية، وللرازي كتب كثيرة في الطب أشهرها «الحاوي» ويمتاز بالملاحظات السريرية، ومنها كتاب «الجدري والحصبة» وله جهود طبية في معرفة الأمراض التناسلية والتوليد وفي جراحة العيون وعلاجها .

ولابن سينا كتاب مشهور في الطب ، وهو «القانون» طبع في

أوربا بين سنة (1473) وسنة (1500) خمس عشرة مرة باللاتينية ومرة بالعبرية ، وظل «الكتاب المقدس» في الطب مدة لم يتمتع بها كتاب غيره ، وهو جامع منسق ، وفيه ملاحظات ونظرات مبتكرة ، حيث فرق فيه بين أنواع من الأمراض ، وعرف خصائص العدوى في السل، كما عرف انتقال الأمراض التناسلية ، وبعض الحقائق النسائية حتى أنه ألمح إلى آثار العشق في الحالات النفسية فكان سابقا للنظريات الحديثة في التحليل النفسي .وعنى العرب بالجراحة والتشريح ، وصنعوا بعض الآلات لأغراضها ، وأشار ابن الطفيل في رسالة حي بني يقظان إلى تجارب في تشريح الحيوانات تدل على فهم وممارسة، واشتهر آل زهر في الأندلس بالطب وتوارثوه ابنا عن أب وعرف الأوربيون دراساتهم ، كما برع العرب في الصيدلة وأفادوا فيها من معارفهم في النبات والكيمياء وراعوا التناسب بين المواد في تركيب الأدوية ، وفطنوا للعلاج الطبيعي بأنواع الأغذية.

كما بلغ فن المستشفيات وتنظيمها عند العرب شأنا عاليا، وجاءت الإشارة إلى تخصيص جوانب منها للتعليم، ونقل الأوربيون عنهم جوانب من هذا الفن، وقد دعى إلى الامتحان في بغداد نحو تسعمائة طبيب على عهد المقتدر بالله، وهم غير الأساتذة الثقاة الذين تجاوزوا مرتبة الامتحان، وهي عناية بالطب والصحة لم تشهدها قط حاضرة من حواضر التاريخ القديم.

وقد اتبع العرب في العلوم الطبيعية وفي جوانبها التطبيقية كالطب والصيدلة منهجية علمية وافية ، تقوم على خمس دعائم: (نفي الخرافات – سعة الاطلاع – الرحلات للبحث والتنقيب – التجارب – الموازنة). والشواهد على عناصر هذه «المنهجية العلمية» متوافرة وكثيرة، و قد ألمحنا إلى بعضها في هذا الاستعراض، ويؤيد صدقها مجمل ما وصل إليه العرب في هذه الميادين من رفعة وتقدم مما يؤيده مؤرخو تطور العلم الحديث .

ولا يفوتنا أن نشير إلى صلة هذه المنهجية باستعداد العقل العربي، الذي يتوفر له من عراقة الحضارات في وطنه، ومساهماتها في ميادين العلم والتقنية معروفة ومقررة، وخصائص بيئته في صحاريها الممتدة، وصفاء أجوائها مما يهدي إلى وضوح الأشياء واهتداء الحواس إلى تمييزها، كما يتوافر له من طبيعة العقيدة الشاملة، التي تقرر نظام الكون واطراد أحواله وفقاً لنواميس ثابتة، كما تقرر له شرف الإنسان على موجودات الطبيعية واستعداده للسيطرة عليها وقيام ذاته بصورة مستقلة، لا تفقد ذاتيتها في غمار المجموع، واعتماده على العقل واضطلاعه بمسؤولية الضمير، وهذا تفسير نفساني للعقل العربي يستند إلى إلمام بالحضارات وعراقتها وإلى طبيعة البيئة وخصائصها، وإلى نظام العقيدة وأصولها.

سادساً : خصائص الحضارة العربية

إن هذه الجوانب الثقافية والعلمية للحضارة العربية تنطوي في جملتها على اتجاهات عامة ، تتخللها وتنتظمها، وهي اتجاهات ليست قاطعة تصدق في جميع الحالات ، بل أنها أحرى أن تصدق على سبيل الإجمال ويمكن توضيح هذه الخصائص فيما يلي :

1 – الشمول والغنى

لقد تعددت مجالات الحضارة الإنسانية واتسعت آفاقها، فلم تقتصر على الدراسات الإنسانية وحدها بل تناولت العلوم الطبيعية، ونقلتها من حالة الملاحظات والتأملات المتفرقة إلى حالة الفروع العلمية المنظمة وعنيت بتطبيقها والانتفاع بها في الحياة .

كما تميزت الحضارة العربية بنوع من التوازن بين الجوانب المختلفة للحضارة، فبينما عرفت اليونان بالفلسفة، وفارس بالآداب ومراسم الحكم.... إلخ، فإن الحضارة العربية مالت إلى الشمول فأسهمت في المجالات جميعها، وتوزعت الجهود بينها في خط من التوافق والانسجام.

ولا يقتصر الأمر على شمول الحركة الفكرية، وإنما يتجاوز ذلك إلى غنى تلك الحركة وعمقها، والدليل على ذلك ضخامة ما تبقى من تراثها، على الرغم مما أصابها من التبدد والضياع، وهو عميق

يستأثر بالفكر والوجدان ، والذي لايزال – رغم مرور قرون بكاملها – يجتذب إليه الدارسين .

2 – الاتصال بالحضارات الأخرى

لقد كانت الحضارة العربية على اتصال دائم بالحضارات الأخرى أخذا وعطاء وتفاعلت معها باستمرار، ويرجع هذا الاتصال فيما يرجع إليه إلى أن الحضارة العربية قد استندت إلى أصول العقيدة الإسلامية ودعوتها الإنسانية التي تعلو على العنصرية وتؤمن بالإخاء والمساواة .

ويظهر هذا الاتصال جليا في حسن التعامل مع الشعوب والأفراد في الأمصار، سواء أكانوا ذوي أصول عربية أم لا، وسواء دخلوا في الدين الجديد أم بقوا على عقائدهم ، كما تجلى هذا الاتصال في نقل الثقافات المختلفة إلى العربية وترجمتها.

3 – الأصالة والنقل

إن الأصالة قدر مشترك بين جميع الحضارات فلا توجد حضارة إنسانية تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل أو خلت من السمات التي تميزها بين الحضارات الأخرى. ولذلك فإن دعوة بعض الأوربيين إلى أن الحضارة العربية قد اقتصرت على النقل دون الأصالة، وعلى التقليد والمحاكاة دون الابتكار والإبداع، تعتبر دعوة عنصرية مردودة ولا أساس لها من الصحة، وحسب

الحضارة العربية أن تراث الحضارات القديمة لم ينقطع على أيديها فحفظت للإنسانية تراثها وزادت عليه، بل ونقلته إلى من تلاها.

وقد كشف العرض السابق لجوانب الحضارة العربية عن اعتماد العرب على النقل ، كما كشف عما أظهروه من الأصالة في استحداث علوم إنسانية بذاتها، وفي وضع أنظمة فلسفية لها خصائصها، وفي ابتكار آراء ونظريات في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها، هذا بالإضافة إلى إنتاج أدب إنساني شامل وغزير .

4 – النزعة العقلانية :

وتجلت هذه النزعة العقلانية في تقدير العلم والعلماء وترسيخ مكانتهم في المجتمع، كما تجلت في مواقف الاتصال والتقدير للتراث الإنساني والنظر فيه والعمل على تطويره، وفي مواقف الاجتهاد والرأي في مختلف مجالات الدين .

وترتب على هذه النزعة العقلانية ما بذله العرب من تطوير مناهج علمية وأصول في البحث وأساليب محددة لتحقيقها والعمل بموجبها وقد شهدنا نماذجها في العلوم الإنسانية، وما تميزت به من تثبت من الحقائق وتمحيصها، ونقد الآراء وتقويمها. ومن السعي الدائب للبحث عنها واعتماد الرحلات البعيدة سبيلا إليها، كما شاهدنا نماذجها في العلوم الطبيعية دقة في الملاحظة واعتمادا على المشاهدة والتجربة، وصحة في القياس والاستنتاج.

5 – النزعة الأخلاقية

وتتجلى النزعة الأخلاقية في العلاقات الروحية بين العلماء أنفسهم ، وبينهم وبين المتعلمين على أيديهم في كثير من الحالات وفي بذلهم العلم لمن يطلبه، وتمكين الآخرين من كسبه نفعا للناس وللمجتمع، كما تتجلى في الجهر بالرأي والاستمساك بالحق. وقد استمدت هذه النزعة الأخلاقية من أصول العقيدة وتعويلها على الضمير، وتحميل الإنسان أمانة أعماله ، وجعل سعيه في الدنيا موصولا بمصيره في الآخرة طلبا للسعادة والكمال في الدنيا والآخرة .

وهذه النزعة الأخلاقية – كما هي الحال بالنسبة إلى النزعة العقلانية – ليست قاعدة مطلقة لا تقبل الشذوذ، وإنما هي اتجاه عام يتجلى حيثما استقرت أحوال المجتمع وحيثما توفر للعلماء تكامل الشخصية، فسمت نفوسهم إلى مستوى الواجب كما يوجبه الضمير .

6 – مجتمع متفاعل :

جاءت الحركة الفكرية في كثير من الحالات متفاعلة مع مجتمعها مستجيبة لمطالبه، ومتأثرة به مؤثرة فيه. ولاشك أن المجتمع العربي قد انتقل من البساطة إلى التعقيد في ظل الحضارة الجديدة والاختلاط بالشعوب الأخرى، ونشأت فيه مشكلات

وحاجات لم تكن معروفة من قبل، وقد رأينا نماذج من مواجهة الحركة الفكرية لتلك المشكلات واستجابتها لتلك الحاجات سواء في نشأة العلوم اللغوية أو في نشأة علمي الفقه والتشريع، أو في نشأة علم الكلام، كما ينعكس ذلك على تطور الفلسفة وتطور العلوم الطبيعية، وما يترتب عليها من تقدم الطب والعلاج، وتقدم الصيدلة وتوفير الدواء.

7 – الحرية الفكرية

إن أحد أصول العقيدة الإسلامية اعتمادها على العقل والضمير، واستغناؤها عن الوساطة في الاعتقاد، ضمانا للحرية الفكرية وتمكيناً للإنسان من ممارسة حق التفكير وحق التعبير. بل حارب الإسلام الموانع التي تمنع العقل الإنساني من الانطلاق، وأكبرها العرف أو التقليد الذي يوصف بعبادة الآباء، فهو لا يقبل من المسلم أن يلغي عقله ليجرى على سنة آبائه وأجداده، أو رهبة من بطش الأقوياء .

وقد كان هذا هو الأساس الذي وفرت للحركة الفكرية حظاً كبيراً من الحرية، ففتحت الثقافة العربية صدرها للثقافات الأجنبية واستوعبت مذاهبها في الفلسفة وعملت على تجديدها وتطويرها، وأقرت مبدأ الاجتهاد في الشريعة، فضلا عما توافر للآباء والشعراء من نماذج واسعة للتعبير عن أفكارهم وعواطفهم ، كذلك أتاحت

للعلماء أن يستقصوا في مباحثهم ظواهر الطبيعة وخصائصها دون تدخل من السلطة السياسية أو الدينية كما حدث في أوربا. بل إن الفلسفة وبعض مذاهبها كانت أرحب صدراً وأسمح فكراً في الدولة الإسلامية عامة من بلاد اليونان نفسها.

8 – التأثير في الحضارة الأوروبية

من المعروف أن العرب قد حفظوا الفلسفة اليونانية وبخاصة فلسفة أرسطو وشرحوها وعلقوا عليها ، وأضافوا إليها . وقد نقلت كتبهم في الغالب عن طريق الأندلس إلى أوربا في القرون الوسطى ، فعرف الأوربيون أرسطو عن طريق هذا النقل كما عرفوا فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب على السواء وتأثروا بهم ، وشمل هذا التأثير بعض الفلاسفة الأوربيين كما شمل بعض رجال الدين المسيحي كالقديس توما الاكويني ، وأشار نيكلسون في «تراث الإسلام « إلى المشابهات بين أقوال الصوفية المسلمين وأقوال الصوفية الأوروبيين .

وإذا كانت الحضارة الأوربية تتميز في عصورها الأخيرة بالعلوم وتطبيقاتها ، فإن العرب كانوا أسبق إلى نقل العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ومن بينها الطب إلى أوربا، حيث ظلت الكتب العربية في الطب والطبيعيات معتمدة في الجامعات الأوربية لعدة قرون. ولم يقتصر التأثير على الأفكار والنظريات، ولكن تعداها إلى

المناهج العلمية نفسها ، والدليل على ذلك تأثر «روجر بيكون» وهو الرائد في تلك المناهج وفي الدعوة إليها بالمباحث العربية واعترافه بفضلها ، كما يقرر «سارثون» مؤرخ العلم فضل العرب في تقدم العلوم الطبيعية .

ولعل الأثر الشامل الذي تركته الحضارة العربية يتعدى المعرفة إلى الاتجاهات العامة ومواقف الناس إزاء السلطة الدينية والسلطة المدنية على السواء .

إن خصائص الحضارة العربية – من شمول وترابط، واتصال بالحضارات الأخرى، وقدرة على الأخذ والعطاء، والاقتباس والتفاعل والتجديد، واحترام العقل والتعويل على التفكير، واعتماد حرية الفكر والاجتهاد، والتمسك بالقيم الأخلاقية – تعني تربية ذات رؤية متكاملة، وبرامج متطورة، وأساليب متجددة تحفظ لهذه الحضارة خصائصها الأصيلة، وتمكنها من التفاعل الإيجابي مع خصائص العصر في الحاضر والمستقبل .

سابعاً : التربية العربية : مبادؤها ومؤسساتها

1. المبادئ :

كانت للتربية مكانة واضحة وملحوظة في هذا الإطار الحضاري المتطور، وكانت لها أصولها وبداياتها عند العرب قبل الإسلام ، ولكنها بالإسلام وفي سياق الحياة الجديدة التي نشأت

في أجزاء الوطن العربي ، أخذت تتطور فكراً ومبادئ ، وأنظمة ومؤسسات .

وفيما يلي عرض لأهم مبادئ التربية العربية :

أ – مكانة العلم والعلماء :

تعددت آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية في تقدير العلم والعلماء، قال تعالى : «.. يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ...» آية (11) سورة المجادلة ، « ... قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون» آية (9) الزمر ، « ... إنما يخشى الله من عباده العلماء» آية (28) فاطر. ومن الأحاديث قوله (صلى الله عليه وسلم) : «العلماء ورثة الأنبياء» و «من سلك طريقاً يطلب فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة» و «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» وقد تقرر هذا المبدأ بواقع المجتمع المدني أصلاً ، وبنماذج كثيرة من المجتمع العربي على مر العصور .

ب – الشمول والتكامل

إن نظرة الإسلام الشاملة المتكاملة للكون والمجتمع والإنسان لها مضامين تربوية تقضي بأن تكون التربية شاملة متكاملة تعني بالجوانب المختلفة للإنسان ، وتحقق له التوازن والانسجام في حياته ، كما تعني بتنشئته متكاملاً في شخصيته موفقاً بين مطالب

الروح ومطالب الجسم ، وبين واجبات الدين وواجبات الدنيا ، مؤمنا بالأخوة الإنسانية للناس أجمعين .

وقد كانت التربية في مجتمع المدنية على بساطة أدواتها وأساليبها تنحو نحو هذا المبدأ ، فاجتمع إلى جانب التفقه في الدين ، تأديب النفس ورياضتها على مكارم الأخلاق ، وتنمية التفكير، والاعتماد على العقل، والمشاركة في المجتمع .

ج – العقلانية والأخلاقية والعملية

تتميز التربية العربية بالعقلانية حيث اعتمدت على العقل وحض الإنسان على التفكير ، كما تميزت بالأخلاقية من حيث اعتماد الضمير والتعويل على تحمل الإنسان المسؤولية ، كذلك تميزت بأنها عملية يمكن تطبيقها في شتى مجالات الحياة بما يضمن سعادة الإنسان في الدارين ، وقد تكررت الإشارة إلى فضل العمل في أكثر من موضع في القرآن الكريم والأحاديث النبوية . وقد ورد دعاء للنبي (صلى الله عليه وسلم) يدل على هذه المعاني : «اللهم علمني ما ينفعني، وانفعني بما علمتني، وزدني علما، والحمد لله على كل حال «فهذا المبدأ من المبادئ الأساسية في التربية يؤكد التكامل في بناء الشخصية ، وفي توثيق السلوك بالمجتمع .

د – مجتمع التعلم والمعرفة

لعل من أهم المبادئ التي تميز التربية العربية – خاصة بعد انطلاق

الدين الجديد – السعي إلى التعلم والمعرفة ، فقد كان الإقبال على تعلم القرآن ومبادئ الدين واستيعاب مفاهيم العقيدة ، منطلقا رئيساً إلى التعلم وتطور القراءة والكتابة ، بل إن أولى آيات القرآن الكريم كانت أمراً بالقراءة وتمجيداً للعلم « اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) خلق الإنسان من علق (2) أقرأ وربك الأكرم (3) الذي علم بالقلم (4) علم الإنسان ما لم يعلم (5)» آيات (1 – 5) العلق . كما أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كلَّف المتعلمين من الصحابة بتعليم إخوانهم القراءة والكتابة وتفقيههم في أمور الدين .

ولقد زاد الاهتمام بالتعليم والمعرفة بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، فقد أتيح لأسرى بدر الفداء عن طريق تعليم عشرة من المسلمين، وكانت تلك أول محاولة معروفة لمحو الأمية بين الكبار. كما كانت دار ابن أبي الأرقم أول مدرسة للتعليم ينشئها الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وبهذا أصبح مجتمع المدينة مجتمعاً متعلماً ، والذي كان فيه القرآن الكريم الكتاب الأول ، والنبي المعلم الأكبر، والمسجد المؤسسة الأولى ، وسار الخلفاء الراشدون على هذا النهج ، فاجتمعت لهم صفات القيادة والتعليم .

هـ – اعتبار التعليم حقاً وواجباً على كل إنسان

جاء القرآن الكريم ليؤكد على العقل في فهم أمور الشريعة

وفي سائر شؤون الحياة ؛ الأمر الذي جعل التعليم حقاً لكل فرد وواجباً عليه، فالعقل مطالب بالتفكير والنظر والتدبر، وهي عمليات تفترض جهدا ذاتيا خاصاً به. كما جاءت الشريعة لتقرر أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. وتشير الشواهد إلى أن تعليم الصغار كان يعتبر أمراً هاماً، فالوالد مكلف بتعليم أولاده القرآن والصلاة . وقد ذهب الإمام القابسي إلى القول بأن الشريعة تقتضي أن يكون تعليم الصغار واجباً مفروضاً على الآباء حتى إذا اقتضى الأمر أن يكون ذلك بأجر يدفعه الوالد إن استطاع أو يدفعه أقرباؤه القادرون إن لم يستطع، وهذه دعوة إلى الإلزام في التعليم تصدر في القرن العاشر الميلادي، سبقت بها وثائق حق الطفل في التعليم التي تنادي بها المؤسسات الدولية المعاصرة .

و – العناية بالطفولة

ومع الاهتمام الكبير بتعليم الكبار، ظهر التأكيد على العناية بالطفولة وتعليم الصغار، وهي عناية موصولة بما عرف من اهتمام العرب بالأنساب ونقائها، ومن اعتبارهم الولد مادة التكاثر وقوام التفاخر. وقد روي ابن النديم اهتمام العرب بتربية أطفالهم وتثقيفهم روحيا وجسميا منذ الجاهلية وفي صدر الإسلام، وعندما جاء الإسلام زاد هذا الأمر عناية، فقد روى عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه أكد على ضرورة إلغاء التمييز في تعليم الأطفال، وإتاحة الفرص الكاملة أمامهم حيث قال : « أيما مؤدب

ولي ثلاثة صبية من هذه الأمة فلم يعلمهم بالسوية ، فقيرهم مع غنيهم وغنيهم مع فقيرهم حشر يوم القيامة مع الخائنين» .

ز – الوظيفة الاجتماعية للتربية

والمضمون الاجتماعي للتربية العربية بارز واضح ومن شواهده اضطلاع المتعلمين من المسلمين بتعليم إخوانهم من الأميين ، كما حصل في فداء أسرى بدر لقاء قيامهم بالتعليم . كذلك كان رسول الله (ص) ينتدب المعلمين لتعليم من لا يقرأ ولا يكتب دون أن يتقاضوا أجراً على ما يؤدونه من مهمات التعليم، حيث كانوا يعتبرونه عملاً في سبيل الله، وقد ظلت هذه القدوة سائدة إلى أجيال بعد النبي (ص) . ويروى أن عمر الفاروق (ص) كان يرسل بعض الصحابة إلى الأمصار بعد فتحها لهداية الناس وتعليمهم، بل كان الجيش الإسلامي يعتبر قوة تربوية أينما سار ، فلم تكن المعسكرات مجرد حاميات بل كانت مراكز تنتشر منها الدعوة إلى الدين الجديد .

وظل هذا الاهتمام واضحاً بين الخلفاء بعد ذلك، حتى كان إنشاء المدارس بمعناها المحدد على يد نظام الملك، فقد أصبحت مؤسسات ذات صبغة رسمية – كما نقول بتعبير هذا العصر – تشرف الدولة على مناهجها وتجعل منها أداة لمذاهبها، ووسيلة لتخريج الموظفين العاملين في دواوينها، وهكذا تجلت علاقة وثيقة

بين التربية والدولة .

ح – التعليم مفتاح التغيير وأداته

إن المتأمل لمجتمع المدينة – كما سبقت الإشارة إليه آنفا – يتبين له أن الحاجة إلى تغيير ما في النفوس وهدايتها إلى الدين الجديد، وإلى تنظيم المجتمع كما تقتضيه العقيدة ، استدعت جهودا في تربية الناس وفي تعليمهم، بدءا بتثقيفهم في الدين وصولاً إلى تعديل سلوكهم وتغيير مواقفهم تجاه الحياة والمجتمع . ويلاحظ أن العناية انصرفت في هذه المرحلة إلى إحداث هذه التغييرات في نفوس الكبار، واعتبارهم طلائع فعَّالة لبناء المجتمع الجديد. واتسع المسجد كمؤسسة اجتماعية تربوية تناقش فيها مسائل السياسة والاجتماع ومسائل الحياة بصفة عامة ، ومن ثمَّ أصبح هؤلاء الكبار من مجتمع المدينة هم قادة تلك الحركة التاريخية الكبرى في الفتوحات الإسلامية .

ط – التعليم المستمر

لقد تم اعتماد مبدإ التعليم المستمر أو التربية المستدامة في التربية العربية وإن لم يعرف بهذه التسمية، فالعقيدة التي تعتمد على العقل واستثماره باستمرار في الحياة، وتجعل التفكير قوام الإيمان، والعقيدة التي تحض الناس بأن الله لا يغير ما بأحوالهم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، لهي عقيدة تتطلب استمرار الإنسان في

طلب التعليم والتعلم .

وقد دعا القرآن الكريم إلى هذا الأمر على لسان النبي (ص) «وقل رب زدني علماً « آية (114) طه ، فالعلم واسع لا ينفد، وطلبه موصول لا ينقطع، كذلك يقول النبي (ص) : «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» وفيه تعبير صريح ودعوة واضحة لمبدإ التعليم المستمر ، تكاد تصرح بمصطلحها الحديث . كما كان لاتساع المساجد منذ إنشائها لتكون مؤسسات اجتماعية ثقافية تشمل الكبار والصغار شاهد آخر على التعليم المستمر ، وعلى استثمار المؤسسات غير المدرسية في تحقيقها .

2 – المؤسسات التعليمية :

لقد تجسدت المبادئ السابقة في المؤسسات التعليمية الإسلامية، والتي كانت نتاجا واقعيا من صميم حاجات المجتمع الإسلامي وأحواله في الأمصار والأقاليم ، فلم تكن في جملتها دخيلة أومأخوذة عن الحضارات القديمة ، بل عكست على الدوام صوراً للمجتمع الإسلامي في تطوراته المختلفة. فالمعاهد الإسلامية نشأت في أوقات متباعدة بتأثير ظروف خاصة ولتحقيق أغراض معينة أملتها حاجات الحياة الإسلامية النامية المتطورة ، ومن هذه المعاهد الإسلامية التعليمية الكتاب والمسجد والمدرسة ودار الحكمة ودار العلم والخوانق والزوايا والربط وحلقات الدرس،

وفيما يلي عرض موجز لتلك المؤسسات .

أ- الكُتَّاب :

يعتبر الكتّاب من أقدم المعاهد التعليمية في الإسلام، بل إنه يرجع في تاريخه إلى عصر الجاهلية، وكان يقوم بتعليم القراءة والكتابة للصغار. وبظهور الإسلام أصبحت له وظيفتان ، الأولى : تعليم القراءة والكتابة ، والثانية : تعليم القرآن الكريم وأصول العقيدة والعبادات ، وكان كثير من الكتاتيب ملحقا بالمساجد أو موجوداً فيها.

وقد ازداد عدد الكتاتيب في القرن الثاني الهجري وما تلاه من قرون زيادة سريعة وواسعة حتى أصبح للقرية الواحدة كُتَّاب خاص به، بل ربما كان بها أكثر من كتاب، ولا يعني هذا الانتشار أن التعليم كان مفروضاً بالقوة بل كان نابعا عن مجتمع عربي يشعر بقيمة التربية والتعليم.

وقد كان الكتاب عاما للجميع يتعلم فيه الغني إلى جانب الفقير، بل كان التلاميذ الفقراء يحصلون على الطعام والكساء دون مقابل في بعض الكتاتيب. هذا ويعتبر الكتاب أول نموذج من المؤسسات يدخل في نطاق ما يسمى بالنظام المدرسي. وكان المعلمون في الكتاتيب الخاصة يسمون بالمؤدبين تأكيدا لمهمتهم في التربية الشاملة لتهذيب الأخلاق والنفوس. وظل الكتّاب أكثر

المؤسسات التعليمية الخاصة بالأطفال شيوعا في أرجاء الوطن العربي كله، فهو المؤسسة السائدة طيلة قرون حتى زاحمته في العصر الحديث المدرسة بمعناها المحدد ، ومع ذلك مازال للكتاب بعض النماذج في البلاد العربية .

ب- المسجد :

ويرتبط تاريخ التربية الإسلامية ارتباطا وثيقا بالمسجد ، حيث قامت به حلقات الدراسة منذ نشأته واستمرت كذلك على مر العصور والقرون . وكان المسجد في عصور الإسلام الأولى مكاناً للعبادة ومعهداً للتعليم ومركزاً للقضاء ومنزلا لاستقبال السفراء . أما في صدر الإسلام والعصر الأموي فكان محور التعليم في المسجد القرآن الكريم والحديث وأخبار العرب واللغة ، ولما تنوعت العلوم في العصر العباسي تنوعت كذلك حلقات الدرس فكان منها لتدريس النحو ، ولرواية الشعر والأدب ، كما تم تدريس الطب والميقات بجامع أحمد بن طولون بمصر . وقد احتوى الكثير من المساجد على مكتبات كبيرة ، إذ كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد .

ولعل من أشهر المساجد التي اتخذت للتدريس واشتهرت مساجد مكة والمدينة والكوفة، ومسجد عمرو بن العاص بمصر، والمسجد الأموي بدمشق، ومسجد المنصور ببغداد، ومسجد

القيروان بتونس، ومسجد قرطبة، ومسجد القرويين بفاس بالمغرب، والجامع الأزهر بالقاهرة وغيرها من المساجد في المدن العربية والإسلامية. وبهذا يعد المسجد بمثابة مؤسسة تعليمية فريدة خاصة بالمجتمع الإسلامي، نشأت على غير نموذج سابق لها ، وظلت من دون نظير يماثلها. وعنيت أولاً بالكبار ثم ضمت إليها تعليم الصغار، فكانت نموذجاً للمؤسسات غير النظامية في تعليمها. ثم أصبحت طلائع لمؤسسات التعليم العالي واشتهر من بينها بعض المساجد في العواصم العربية والتي من بينها الجامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس.

ج – المدرسة :

نشأ إلى جانب المساجد عند نهاية القرن الرابع الهجري مؤسسات تعليمية شاركتها في وظائفها التعليمية وبخاصة على مستوى التعليم العالي وهي المدارس ، والتي كانت في الغالب ذات صفة رسمية حيث عني بإنشائها بعض الحكام كالمدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك السلجوقي ونسبت إليه ،كما اشتهرت في مؤسسات التعليم المدرسة المستنصرية في بغداد .

إن ظهور المدارس في الإسلام يعتبر محاولة جديدة لقيام الدولة بمسؤولياتها في التعليم، وفي تنظيم الدراسة والإشراف عليها حيث خصصت مرتبات ثابتة للمدرسين وزودت الطلاب في

حالات كثيرة بالمسكن والمأوى مما ساعد على إيجاد نظام ثابت وتقاليد متبعة للتدريس والإدارة . وقد تسابق الخلفاء والأمراء في بناء المدارس في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأنفق في بنائها الأموال الطائلة ، وحسبت عليها الأوقاف العظيمة .

د – دور الحكمة والمكتبات :

وكان من أثر اهتمام الخلفاء بالتعليم ومن بينهم المأمون ظهور مؤسسات تجمع بين شؤون الثقافة العامة، وتشجيع الحركة العلمية وما تتطلبه من نقل الكتب من اللغات الأجنبية ، ومن إنشاء مراكز علمية وثقافية كالمراصد والمكتبات ، وقد عرفت أولاها – كما أنشاها المأمون – بدار الحكمة ، واتسعت هذه المؤسسات لتضم وظائف تعليمية .

وقد قام العلماء في هذه الدور بحركة نسخ وترجمة عظيمة إلى جانب التدريس، وبخاصة تدريس العلوم الدنيوية كالعلوم والرياضيات والطب . وقد ظلت دار الحكمة التي أنشاها المأمون في بغداد تضطلع بهذه الرسالة حتى استيلاء التتار على بغداد . وقد أقام الحاكم بأمر الله في القاهرة داراً للعلم على غرار دار الحكمة في بغداد .

كما كان للمكتبات دور هام في التربية والتعليم عند العرب فانتشرت انتشارا كبيرا ، وتم تزويد أغلب المساجد والمدارس

بمكتبات ضخمة ، لإتاحة الفرصة أمام الجميع للقراءة والبحث والمحافظة على المخطوطات والكتب حيث كانت جميعها تنسخ باليد .

هـ – الخوانق والزوايا والربط :

وتشبه هذه الخوانق والزوايا والربط – إلى حد كبير – الأديرة والصوامع، وقد أعدت في الغالب للمتصوفين ينقطعون فيها إلى العبادة والدرس وتعنى بالعلوم الدينية. كذلك ظهرت البيمارستانات وكانت أشبه بمدارس الطب الحديثة حيث أنها كانت تلحق بالمستشفيات الكبيرة، فتلقى فيها الدروس ويتاح للطلبة فرصة تطبيق ما درسوه على ما يعاينونه من أعراض الأمراض وطرق علاجها .

هذا ولم تكن أمكنة التعليم في الإسلام قاصرة على هذه المؤسسات والمراكز ذات الصبغة الأكاديمية فحسب ، بل وجدت أماكن خاصة قامت بدور تعليمي ربما لا يقل أهمية عن تلك المؤسسات، والتي منها : حوانيت الوراقين، وحلقات الدرس أو الصالونات الأدبية، ومجالس الملوك والأمراء ، وكلها كانت تتيح فرص التعليم خارج هذا النظام المدرسي بصورة مستمرة لا تعرف القيود أو الحواجز .

ويتضح من العرض السابق لمبادئ التربية العربية وتطور

مؤسساتها وجود عدة اتجاهات عامة رئيسية تنبئ عن أصالة هذه المبادئ وهذه المؤسسات والتي منها :

• إن ازدهار النشاط التعليمي وما صاحبه من التنافس على إنشاء المؤسسات التعليمية كان مرجعه إلى مجتمع يشعر بقيمة التربية وأهمية التعليم إلى حد بعيد، وهو اهتمام بدأ في صدر الإسلام من اهتمام عام بأمور الهداية والتعليم ، ثم تجلى بعد ذلك في عناية بعض الخلفاء بتشجيع العلم والعلماء .

• تعدد أنواع المؤسسات التعليمية وازديادها حينا بعد حين، حيث كانت حلقات التعليم في المسجد أول أنواعها وكانت أصلاً نظاماً لا مدرسيا للكبار ، وهو صيغة تزداد الدعوة إليها الآن لحاجات متجددة في الدول المتقدمة والنامية على السواء وتحقيقاً لمبدإ التربية المستمرة أو المستديمة. كما كانت هذه الحلقات أيضاً وسيلة لإحداث التغيير في اتجاهات الناس وفي مفاهيمهم .

• غلبة الطابع الديني على مؤسسات التعليم في بداية الأمر حيث هو الطابع الذي صبغ الحياة الإسلامية كلها ، ولكن ما لبث الأمر حتى أخذ الكثير من العلوم الدنيوية طريقه في الوقت المناسب إلى هذه المؤسسات، حيث درست الأدب والمنطق والرياضيات والطب بجانب علوم القرآن الكريم والحديث والفقه وغيرها من علوم الدين ، ومن ثم جمع المسلمون بين علوم الدين وعلوم الدنيا

دون فصل بينهما، مما ينسجم مع أصول الإسلام .

• جاء ازدهار الثقافة العربية بجانبيها «الإنساني والعلمي» نتيجة التزام منهجية سليمة تصدر أصلاً من مصدرين : المصدر العقلاني بالتعويل على العقل والتفكير ، والمصدر الأخلاقي بتأكيد مسؤولية الإنسان وتعويله على ضميره وأخلاقه في عمله .

• انفتاح المؤسسات التعليمية أمام جميع الراغبين في التعليم والتعلم دون تمييز بين طبقة وأخرى طالما توافرت القدرة والإرادة على التعلم .

• ارتباط المؤسسات التعليمية بالحياة وبالناس، حيث كان الأستاذ يحاضر والأبواب مفتوحة ليستمع أو يستفيد من يشاء من غير طلابه ، كما لم يعتبر الطلاب أنفسهم فئة منقطعة الصلة بالحياة خارج معاهدهم . وهذا ما تحاول الاتجاهات الحديثة تحقيقه من حيث ربط التعليم بالبيئة وجعل معاهد التعليم مركز إشعاع فيها.

ثامناً : الفكر التربوي العربي

كانت التربية والتعليم بهذه المبادئ الأصيلة وبهذه الوظائف الكثيرة، وبهذا التعدد من الأنشطة ، وبهذه المكانة في المجتمع موضع دراسة ومناقشة وتحليل على أيدي بعض العلماء من الفلاسفة والفقهاء والأدباء. ومن أول هذه الدراسات ما ألفه سحنون عن « آداب المعلمين « وما كتبه القابسي بعنوان «الرسالة

المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين» كما ألف ابن مسكويه ثلاثة كتب في التربية، كما تناولت كتب الفلسفة جوانب من التربية ، والتي منها رسائل إخوان الصفا ، وكتابات الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، والغزالي، وابن خلدون .

وقد أسهم هؤلاء جميعا في تكوين فكر تربوي ، لا يقف عند مجرد النقل بل تجاوز ذلك إلى حسن الاستيعاب والتكيف للثقافة العربية وخصائصها ، وإلى الإبداع والابتكار. وقد تناول هذا الفكر جوانب متعددة من العمل التربوي يمكن إجمالها فيما يلي:

1 – وجوب دراسة الأسس النفسية للمتعلم موضع تفكير هؤلاء الأعلام، فيرى الفارابي وجوب استعداد المتعلمين والتعرف على طبائعهم .ويدعو ابن سينا إلى التبكير في التربية، ويرى البدء بها منذ فطام الصبي لئلا تثبت في نفسه الأخلاق الذميمة فيصعب نزعها ، ويكون تهذيبه بالحمد والتوبيخ وإذا احتاج الأمر إلى ضربه ، فليكن ضربا قليلا ومؤثرا ، كما يؤكد ابن سينا على تعليم الصبي بين جماعته « فإن الصبي عن الصبي ألقن وهو عنه آخذ، وبه آنس، وكثرتهم موجبة لألفتهم ، وللتنافس الحميد بينهم». ويشير ابن سينا أيضا إلى أهمية التوجيه التربوي والمهني ، حيث يرى أنه إذا فرغ الصبي من التعليم وجهه المؤدب نحو صناعة (مهنية) تكون موافقة لمزاجه واستعداده .

ويعزز ابن خلدون هذه النظرة النفسية ويفصلها عندما وضع قواعد عامة ينبغي مراعاتها من جانب المعلمين ، والتي منها :

– مراعاة مقدرة المتعلم العقلية من حيث نوع مادة التعليم ومقدارها .

– التدرج بالمتعلم من السهل إلى الصعب .

– الانصراف إلى العلوم واحداً بعد الآخر، فلا يشتغل بها مرة واحدة .

– تجنب الشدة على المتعلمين لأنها تفسد معاني الإنسانية وتضر بشخصية المتعلم .

2 – وقد تناول هؤلاء المفكرون أيضا محتوى التعليم ومضمونه وحاول كل منهم أن يؤكد الجانب الذي يتفق ووجهة نظره وتصوره للمجتمع ، فنجد الغزالي الذي كان صوفيا وأثرت هذه النزعة في تقسيمه للعلوم إلى (أ) علوم مذموم قليلها وكثيرها كالسحر لأنها عديمة الفائدة في الدنيا والآخرة .

(ب) وعلوم محمود قليلها وكثيرها وهي الدراسات الدينية والعبادات لأنها تساعد على معرفة الخير والتقرب إلى الله .

(ج) وعلوم يحمد منها بقدر معين مثل فروع الفلسفة وبعض المذاهب الطبيعية .

(د) جاءت آراء هؤلاء المفكرين داعية إلى وجوب التعليم وضرورة السعي إلى العلم .

(هـ) يحتل المعلم مكانة كبيرة في آراء هؤلاء المفكرين، حيث وصفوا كيفية اختيار المعلم ، وكيف يعامل الصبيان، وكيف يعالج أمور التعليم. ويرى ابن سينا أن المعلم ينبغي أن يكون عاقلا ، ذا دين ، بصيرا برياضة الأخلاق ، حاذقا بتخريج الصبيان ، وقورا رزينا بعيدا عن الخفة والسفه ، قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي .

ويبدو من هذا العرض المجمل للتربية العربية في إطار الحضارة العربية الإسلامية في العصور الوسطى ما تنطوي عليه من الأصالة والملاءمة لأحوال مجتمعها في تطويرها ، بل إنها لتنطوي على حظ وافر من المعاصرة حيث اتفق كثير من مبادئها وأفكارها واتجاهاتها العامة مع الفكر الحديث المعاصر وما فيه من مفاهيم ونظريات .

أما منابع الأصالة فقد أتت من أصول العقيدة الإسلامية وما يترتب عليها من التأكيد على مكانة الإنسان وما يتميز به من العقل والتفكير ومن نوازع الخلق والضمير ، يفرض تمكينه من التعلم وتطوير شخصيته وما يصدر عنها من سلوك، وتتيح له الانطلاق في مجالات الإبداع والابتكار. كما أن مسؤوليته نحو مجتمعه واعتباره فردا في نظام اجتماعي يقوم على أساس التعاون

والتكافل تميل به إلى تأكيد الوظيفة الاجتماعية للتربية وإلى ملاءمتها لحاجات مجتمعها .

وأما المعاصرة، فيكفي أن يتأمل المرء في الأحاديث النبوية ليتحقق من نفاذ تعمقها في الطبيعة البشرية وفي طبيعة تربيتها، وملاءمتها للمفاهيم الحديثة في هذا المجال، ومن هذه الأحاديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة» ، « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» ، «اطلبوا العلم ولوفي الصين» ، حيث تبرز هنا حكمة عظيمة في اقتران العلم بالطلب في الأحاديث الثلاثة ، ولا يكون الطلب إلا بوازع من ذات المتعلم ودافعيته الخاصة ، وكونه فريضة يلحق بالمسئولية الخلقية للإنسان قبل أن يكون واجبا تفرضه التشريعات، وهو فريضة يتساوى فيها الرجال والنساء، والإشارة إلى الصين لتأكيد الاتصال بالثقافات مهما بعدت أو تعددت ، فلا تتقيد التربية بمكان. وكون طلب العلم في الحديث يتواصل من المهد إلى اللحد، أي لا يتقيد بزمان، وهذه جميعا مفاهيم من أحدث المفاهيم التي تنطوي عليها التربية المستمرة أو المستديمة، من حيث تأكيدها على الجهد الذاتي ، وعلى المسؤولية الخلقية وعلى الانطلاق فيها من قيود الزمان والمكان .

وبعد فإن التراث التربوي العربي، بخصوصيته وغناه، يجدر أن يكون مصدرا لتجديد التربية العربية في الحاضر والمستقبل، لما فيه من مفاهيم ومبادئ وخبرات يسعى الفكر الحديث إلى

اعتمادها وتأصيلها، فهو تراث يقرر مكانة الإنسان وحقه في الاعتماد على فكره وضميره وجهوده الذاتية في التعلم، كما أن هناك مواقفه الإيجابية من التربية اللامدرسية واعتبارها جزءا من حياة الإنسان يجدر الاهتمام به .

كما أن تعليم الكبار واعتباره سبيلا للتغيير والتطوير الاجتماعي، والحرية الفكرية واعتبارها أساس تطوير الشخصية الإنسانية ونموها، ونمو العلم والمعرفة، والتربية المستمرة واعتبارها من حقوق الإنسان في كل زمان ومكان، وهناك التأكيد على حرية المتعلم في السعي إلى التعلم بإسقاط الحواجز والقيود المادية والاجتماعية، وكلها مبادئ تسعى أرقى النظم الاجتماعية الآن إلى تطبيقها والأخذ بها.

تاسعاً : ضعف الحضارة العربية

يتضح مما سبق مدى التقدم الحضاري الذي أحرزه العرب، وهو تقدم لم يقتصر على العلم النظري أو إنشاء دور العلم فحسب، بل تعداه إلى حياة المجتمع العربي وإلى الجوانب التطبيقية من العلوم. فكان للعلم عند العرب وظيفة اجتماعية فضلا عن كونه بحثا عن الحقيقة وتقصيا لها.

وكان من المفترض أن تضطرد هذه الاتجاهات لتصل إلى نتيجتها الطبيعية التي وصلت إليها الحركة العلمية في أوربا في القرن الثامن

عشر وصولاً إلى عصر الذرة في القرن العشرين، ولكن الحضارة العربية وقفت عند ذلك الحد ، بل أخذت تشهد أحداثا وكوارث كبيرة أسلمتها إلى الضعف فخفقت أنوار الثقافة فيها حين تعرضت الحضارة العربية للنزعات القبلية والخلافات الطائفية، ومطامع الحكام وتنافسهم، ولم يتمسك الحكام بما تفرضه العقيدة من مستويات أخلاقية تقوم على العدل والإنصاف.

وتوالت على الدولة المخاطر والنكبات وكان أشدها غارات التتار والمغول، وغارات الحروب الصليبية ، وهجمات الإفرنج على العرب في الأندلس، وهي نكبات خطيرة لم تسلم منها الخلاقة، حيث عانت الأمة على أيديهم أهوال الفتك والتدمير، وانصب حقدهم على معاهد العلم والمكتبات فعصفت غاراتهم بالعشرات منها بين بخاري ومرو وبغداد ودمشق وحمص، وبلغ ما تلف من الكتب مئات الآلاف، واختلطت مياه دجلة بدماء الشهداء وأحبار الكتب، بل صنعوا جسرا على نهر دجلة من الكتب التي كانت بمكتبات بغداد .

ومضت أربعة قرون (بين القرن الحادي عشر والقرن الخامس عشر الميلادي) في محاربة الجيوش الصليبية، وظلت الشعوب الإسلامية تستجمع قواها لمواجهتهم حتى ردت غاراتهم بعد تلك القرون. وكانت الحروب الصليبية باتفاق المؤرخين من أعظم الأخطار التي امتحنت بها الشعوب الإسلامية.

ثم جاء الأتراك العثمانيون واستولوا على البلاد العربية كلها، يستثنى من ذلك مراكش في المغرب وقلب شبه الجزيرة العربية وبعض سواحلها الشرقية على الخليج العربي، إلا أن الأتراك اهتموا بالشؤون العسكرية أكثر من اهتمامهم بالشؤون العلمية والثقافية، ولذلك دخلت الحضارة الإسلامية والوطن العربي في أثناء حكمهم (من أوائل القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر والقرن العشرين) دوراً طويلاً من التدهور والتخلف. وسادت في الأمة ثقافة الجمود والركود، فانقطع الناس عن العلم، وتغلبت على رجال الدين نزعة التقليد والوقوف عند الأحكام السابقة. ثم جاء الاستعمار الحديث ليقضى على بقية الأمل في الأمة ومحاولة القضاء على مقومات النهوض مرة أخرى، فما لبث أن خرج ولكن بعد أن أذاق هذه الأمة كل ألوان التخلف والفساد.

ولكن على الرغم من كل هذه النكبات إلا أن المجتمع العربي قد صمد ضدها، ولعل الذي ساعده في ذلك هو الدين الإسلامي، فهو أهم عنصر من عناصر قوته التي بقيت له وحافظ عليها وحافظت عليه. ففضلا عن تمسك الناس به بصورة أو بأخرى خلال عصور الضعف، فقد ظل له من علمائه من يستجيب لدعوة العقيدة فيفكر ويجتهد ويبدع ، وظل في معاهد العلم الكبرى في عواصم العالم العربي من يحفظه وينقله جيلا بعد جيل، حتى قيل عن حق أنه على الرغم من انهيار دولة السياسة فيه بقيت دولة

العقيدة قائمة، فكانت هي قوته ودعامته في مواجهة التحديات على خطر شدتها وضراوتها، بل وأنها الآن تعتبر أساساً لثروته الفكرية ورسالته الإنسانية الجديرة بالدراسة والاهتمام والكشف عن جوانبها لتواجه مشكلات العصر، وتلتمس حلولها ولتكون في تلك الحلول رسالة متجددة يمكن أن تؤلف زادا وعطاء يقدمه العرب لشعوب العالم.

خاتـمة

تعرضت الأمة العربية لعدة نكبات وكوارث من الشرق والغرب، والتي كادت أن تعصف بهذه الحضارة وأن تذيب هذه الأمة . ولكن بفضل الله أولاً، وبفضل هذا التراث الذي اجتمع لها، استطاعت الأمة أن تحافظ على هويتها وتبقى حية بين مصاف الأمم.

ومن ثم ينبغي لكل عربي أن يفخر بهذا التراث وهذه الحضارة، وأن يتم الكشف عن الجوانب المختلفة وإبرازها من أجل إعادة بناء الثقة في الشخصية العربية، وثقة الإنسان العربي بماضيه وتراثه، وأن الدعوات القادمة من المشرق أو المغرب التي تزعم أن لديها المخرج من هذه الأزمات التي نعيشها، ما هي إلا دعوات كاذبة حيث هم الذين شاركوا في صنع هذه الأزمات.

وإذا كانت دراسة التاريخ مهمة ، فإننا أحوج ما نكون لدراسته

في الوقت الراهن ، لمحاولة الخروج من أزماتنا الثقافية والحضارية والتربوية، وصولاً لنشر هذه الحضارة مرة أخرى بين ربوع الأمم جميعا، حفاظا على البشرية وإعلاء لقيم الحضارة الإنسانية .

ولعلّ أفضل الحقب التاريخية التي عاشتها الكرة الأرضية هي فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، والتي نشرت فيها قيم الإخاء والعدل والمساواة دون تفرقة أو تمييز بين جنس أو لون أو غيرهما، ومن ثم نعمت بتلك القيم الأمم الأخرى قبل الأمة العربية.

وهذا التراث الحي هو الذي تكفل بحفظ الأمة العربية من براثن الاستعمار الذي جثم على صدرها لأكثر من قرن من الزمن، حتى تمكنت الأمة من الاستقلال على أيدي الحركات الوطنية التي قاومت الاستعمار واستطاعت أن تخرجه من ديارها، وهذا ما سوف يتم تفصيله في الكتاب الثالث من هذه السلسلة وهو بعنوان « التحدي والصمود».

مراجع الكتاب

1 – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : **التقرير المبدئي للجنة وضع استراتيجية تطوير التربية في البلاد العربية** ، مقدم إلى المؤتمر العام الثالث، القاهرة، 24–19 يناير 1974 .

2 – الشريف، محمد أحمد وآخرون : **استراتيجية تطوير التربية العربية**، تقرير لجنة ، وضع استراتيجية لتطوير التربية في البلاد العربية ،1979 ، ص ص 72–37 .

3 – السيد، عبدالعزيز : «محضر الجلسة الثانية في دور الانعقاد السادس للجنة استراتيجية التربية العربية بقاعة الاجتماعات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم المنعقد بالقاهرة يوم 6 / 2 / 1975» ، المجلد الأول (ب)، ص ص 257 – 262 .

4 – شفيق، محمد نوري : **مقدمة في دراسة المجتمع العربي المعاصر**، دراسة مقدمة للأمانة الفنية للجنة وضع استراتيجية تطوير التربية العربية ، المجلد الرابع 1975 ، ص ص 105–102 .

5 – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، لجنة وضع استراتيجية التربية العربية، «محضر الجلسة الخامسة ، الأربعاء 26 يناير 1977» ، دور الانعقاد العام الرابع عشر للجنة ،المجلد الأول (ب) ص ص 361 – 370 .

6 – الشريف، محمد أحمد وآخرون : **استراتيجية تطوير التربية العربية**، تقرير لجنة وضع استراتيجية لتطوير التربية في البلاد العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة ، 1976 ص ص 49– 114 .

7 – حزين، سليمان : **الندوة الفكرية للجنة وضع استراتيجية لتطوير التربية في البلاد العربية** ، القاهرة 5 – 7 فبراير 1975 ، المجلد الثالث (أ) ص ص 77 – 80 .

8 – يوسف، عبدالقادر : **الندوة الفكرية للجنة وضع استراتيجية لتطوير التربية في البلاد العربية** ، القاهرة ، 5 – 7 فبراير المجلد الثالث (أ) ص ص 149 – 151 .